روايـــة

مُذكِرَات بِينُوكيُو

الكذبة الأخيــرة

مُحمَد شَطا



مذكرات بينوكيو

مذكرات بينوكيو

الكذبة الأخيرة

محمد شطا

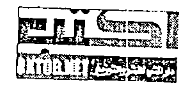
الطبعة الأولى ، القاهرة 2018م

غلاف : أحمد فرج

تدقيق لغوي : خالد رجب عواد

رقم الإيداع: 4679 /2018

I.S.B.N: 978-977-488-568 -6



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد النبادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01111947957

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

مذكرات بينوكيو

الكذبة الأخيرة

رواية

محمد شطا



دار اكتب للنشر والتوزيع

أولاً

فرصة أخرى

ليس من حقهم أن يطلبوا منا انتظار فرصةٍ أخرى دون أن يعطونا أملاً لذلك. كما أنهم يجب أن يعلموا أن هناك مواقف لا يستطيعون فيها أن يطلبوا منا انتظار فرصة أخرى.

العيادة

فقْد السيطرة.. إنها المرحلة التي قرّرتُ عدم الوصول إليها مهما يكلفني الأمر فالهدوء التام هو ما كان يعهده الناس في تصرفاتي وأقوالي وردود أفعالي، ومهما يكن الموقف الذي أمر به صعبًا والحالة متردية، كنتُ أقابل كل ذلك بهدوء عجيب..هدوء يستفز مَن يشاهد الموقف من بعيد ويجعله ينظر لي بعين حاسدة. وما يثير حنق من حولي أنهم عندما كانوا يسألونني عن سر ذلك الهدوء لم تكن لديَ أي إجابة واضحة. ولكني الآن أستطيع أن أهنئ تلك العين الحاسدة التي أصابتني في مقتل. حيث إن التوتر قد بدأ يتخللني، ولكني وكنما قمت من قبل قد قررتُ ألا أفْقدَ هدوئي أبدًا.. لن أفقد السيطرة مهما يكلفني الأمر. وما يثير استيائي أنني لم أفقد هدوئي حين توفيت زوجتي في حادثة مريرة رغم عشقي لها.. فكيف أفقده الآن؟

ربما يكون ذلك التساؤل هو سبب حضوري إلى هنا. فقد سمعت أنه طبيب جيد ويعرف ما يفعله جيدًا، لذلك أظنُّ أنه سيساعدني

كثيرًا على تخطي أزمتي، ولكن لم تكن القدرة الطبية هي ما جعلني أختار هذا الطبيب فهناك سبب آخر.. هذا السبب يسمى "السرية"..

نعم.. أظن أن تلك الكلمة هي التي جعلتني أختار هذا الطبيب دون غيره، فقد سمعتُ أنه يحافظ على السرية التامة لمرضاه، وعندما قيَّمتُ الموقف جيدًا قررت أنه من الأفضل ألا يعلم أحد أنني أزور طبيبًا نفسيًّا، ولأصدقكم القول.. إنني لا أعلم كيف استطعت أن أقنع نفسي بأن آتيَ إلى هذا المكان حتى أنني ما زلتُ مترددًا وأريد أن أرحل، ولكني أظن أن حالتي قد تتفاقم إذا لم أجد حلاً ولا أظن أن هذا الخيار متاحًا.

لا أعلم لماذا أشعر بالتخبُّط والحيرة منذ أن دخلت إلى هنا؟ وبالإضافة إلى ذلك فأنا أشعر بالضيق كأنني دخلتُ مقبرة، فجوُّ هذه الغرفة بارد على نحو غريب كما أنها ضيقة جدًّا لدرجة أنني متأكد أنها أصغر غرفة انتظار للمرضى قد رأيتُها بعيادة طبيب على الإطلاق.. محتوياتها بسيطة جدًّا فلا يوجد بها إلا مكتب صغير تجلس عليه سكرتيرة وبضعة كراسي مريحة لمن ينتظر، كما توجد منضدة صغيرة يضعون عليها التلفاز.. ذلك الجهاز الذي لا يزال يثبت لي أنه أكثر الأجهزة مللا التي قد صنعها البشر على الإطلاق، وفي زمننا هذا لن تجده مدارًا إلا على إحدى المحطات التي تساند الحكومة دائمًا والتي لم تمل بعد من الحديث عن إنجازاتها، كما أنها لم تمل بعد من مهاجمة

معارضيها ووصفهم بالخونة والعملاء،وبالطبع سنجد أن أعضاء جمعية (بينوكيو) من ضمن هؤلاء العملاء والخونة نعم تلك الجمعية التي بدأت في الظهور حديثًا والانتشار بشكل غريب في أغلب البلدان وبين كل مستوياتها الاجتماعية، كما أنها انتشرت بسرعة فائقة على مواقع التواصل الاجتماعي.

بالطبع سيكون من الغريب أن تجد أنه قد أصبح للكذب مؤيدون ومريدون.. ما بال هؤلاء القوم؟ ألا يعلموا أن الكذب شيء شائن؟ لماذا إذن يريدون الكذب؟

وما أنه سيثير حيرتكم أكثر هو لماذا لا يستطيعون الكذب؟ وأظن أن الإجابة عن تلك الأسئلة تبدأ بإيضاح أننا الآن في عام 2100م..

قد تشعرون بالمفاجأة من العام الذي نحن به الآن، ولكني أظن أنه سيكون منكم من سيتساءل.. وما علاقة الزمن الذي نحن به بحقيقة أن الكذب فعل شائن؟

هل أصبح في هذا الزمن ما يستدعي أن تكون هناك جمعية تتبلور أهدافها حول أحقية أحدهم في الكذب؟

هل أصبح الكذب حقًّا تطالب به الشعوب؟

عام 2020.. أظن أنه العام الذي تبدأ من عنده إجابات تلك الحزمة من الأسئلة.. حيث كانت الكرة الأرضية به قد وصلت لأعلى درجات التوتر وأصبحت تحمل على أرضها كمية لا بأس بها من الصراعات الضخمة، خاصة بعد عودة ما كان يُسمى بالاتحاد السوفييتي سابقًا تحت مسمى جديد، وهو دول (الشمس) وذلك بعد أن انضمت له دولٌ قوية من أمثال (تركيا والصين وإيران وكوريا الشمالية).. بالتأكيد كان ذلك التحالف الذي كانت ترأسه روسيا يعمل ضد مصالح غريمه التقليدي على مر العصور والمتمثل في الولايات المتحدة الأمريكية والتي كوَّنت هي الأخرى تحالفًا قويًّا مع (دول حزب الناتو وإسرائيل وكوريا الجنوبية) تحت مسمى (الحلفاء) وهو مسمى بالتأكيد تعيد به ذكريات الماضي.. لكن الصراع لم يحتدم والوضع لم يتأزم إلا في عام 2025م عندما حاولت إسرائيل محاولة أخرى لدخول لبنان. وبالطبع ترتَّب على ذلك دخولها في حرب مع ما كان يسمى آنذاك بحزب الله ولمن يقرأ التاريخ يعلم أن ذلك قد حدث من قبل أكثر من مرة. ولكن ما زاد الموقف سوءًا في هذه المرة أن إيران قد تدخلت لمساندة حزب الله بداعي إنقاذ الشيعة. ومن ثم كان طبيعيًا أن تتدخل الولايات المتحدة لحماية إسرائيل. وما معنى دخول الولايات المتحدة في صراع إلا إسراع روسيا لدخول الصراع نفسه. ولكن ذلك الصراع المتكرر رفض أن ينتهي هذه المرة بالطريقة الدرامية المعهودة

ففي عام 2027م قامت إسرائيل بمهاجمة ما ظنت أنه مناورة عسكرية لإيران، وكان هذا الفعل هو شرارة الحرب العالمية الثالثة، حيث إنها لم تكن مناورة عسكرية بل كان تدريبًا مشتركًا بين كل من إيران وكوريا الشمالية وتركيا مما أغضب حكومات الدول الثلاث التي أعلنت الحرب على إسرائيل من خلال عمليات عسكرية قوية وعنيفة، وبالطبع اضطرت الولايات المتحدة للتدخل لإنقاذ إسرائيل، ولكن ما حدث بعد ذلك بشهر كان السبب في تحولها إلى حرب عالمية، حيث تمت محاولة اغتيال لرئيس كوريا الشمالية الذي نجا، ولكن للأسف فقد كانت ابنته معه في تلك اللحظة ولكن حظّها لم يكن كحظِّ والدها، وعندما تم الإمساك بالفاعل وجد أنه عميل مخابرات أمريكي..

فتاه مسكينة كانت هي السبب الأساسي خلف تغيير مصير العالم، فقد قامت كوريا الشمالية بضرب أكبر قاعدة أمريكية في الشرق الأوسط بدولة قطر باستخدام قنبلة نووية..نعم لقد كانت فتاة صغيرة سببًا في تحويل الحرب من حرب عادية إلى حرب نووية وللأسف لم تكنتلك القنبلة إلا بداية لسلسلة كبيرة من الهجمات النووية المتبادلة والتي كانت كفيلة بتدمير كل شيء.

بالطبع كانت تلك حربًا لا تستطيع أي جهة إكمالها، ولكنهم وكعادة قادة الحروب قد استغرقوا خمس سنوات لكي يفهموا ذلك، وما سيثير دهشتك أن السبب الرئيسي لتوقُّف الحرب هو فقدان الطاقة.. نعم لقد نفد النفط وجميع مشتقاته ولم يعد هناك ما يدير آلات الحرب.. نفد النفط ولولا الطاقة الشمسية لكنا في ظلام حتى الآن.. لولا ذلك القرص الأحمر لكنا عُدنا إلى البداوة، وما سيثير حنقك أن وفاة مليار نسمة وإصابة ما يزيد عن المليارين وتشردهم لم يكن كافيًا لإيقاف تلك الحرب، فقد كانت تلك الحكومات تنوي استكمال الحرب حتى لو استخدموا السيوف، ولكن يبدو أن خمس سنوات من الدمار.. خمس سنوات من الدماء.. كانت كافية لتقنع الشعوب أن حكوماتهم على درجة كبيرة من الحمق، لذلك حدثت حراكًا شعبيًّا طالب بتغيير تلك الحكومات.. يبدو أن البشر لا يؤمنون بأن الأمر قد خرج عن السيطرة إلا بعد الدمار.. إلا بعد الدماء.. للأسف.. تلك هي عادة البشر في كل وقت (إفساد الأرض).

بعد ذلك احتاجت الكرة الأرضية ما يقرب من خمسين عامًا حتى تعيد تنظيم نفسها.. خمسين عامًا لتخفي آثار تلك الحرب الشعواء.. خمسين عامًا من العمل بكدٍّ لإخفاء خمس سنوات من الحرب المهلكة.. خمسين عامًا كانت كافية لتعيمنا أن ذلك لا يجب أن يحدث من جديد مهما يكلف الأمر، لذلك قام نخبة من علماء النفس على مستوى العالم بدراسة أسباب ما حدث تحاشيًا لأن نقع به مرة أخرى، وبعد

دراسات استمرت أعوامًا توصلوا لنتيجة مهمة، وكانت هذه النتيجة هي سبب تغيير حياتنا الآن، فقد توصلوا إلى حقيقة أن سبب تلك الفوضى وسبب تلك الحروب التي دمرت الكوكب وسبب كل ذلك الفساد هو (الكذب).. نعم فما السياسي البارع إلا رجل يحترف الكذب، وما تلك الأسرة التي يقودها فردان يتبادلان الكذبات أمام أطفالهم إلا مصانع بشرية لآلات كذب صغيرة، وبالطبع لا يمكننا أن نغفل آلات الكذب التي تتوغل إلى منازلنا كل يوم.. بالطبع أنا أقصد هنا (المحطات الفضائية).

كانت تلك الأبحاث مهمة وحاسمة ومن أجل ذلك تمخضت نتائجها عن باب فُرض على جميع بلدان العالم ليتصدر دساتيرهم.. في ذلك الباب تم اعتبار الكذب جريمة يعاقب عليها القانون العالمي من خلال منظومة جديدة أُضيفت لمؤسسة القضاء العالمية، وقد اتفق واضعو ذلك الباب على جعل مواده قليلة وبسيطة لكي يفهمها الجميع.. وكانت مواد ذلك الباب كالآتي:

المادة الأولى: يُعدُّ الكذب جريمة يعاقب عليها القانون "بقطع اللسان" وذلك إذا لم تكن الكذبة قد أودت بحياة شخص ما، ويُطلق عليها في هذه الحالة (كذبة ليست حمراء).

المادة الثانية: يُعدُّ الكذب جريمة يُعاقب عليها القانون "بالموت" وذلك إذا أودت الكذبة بحياة شخص ما، ويطلق عليها في هذه الحالة (كذبة حمراء).

توضيح: يُستثنى من المادتين السابقتين ما دون الثامنة عشرة عامًا.

إن أكثر ما أكرهُه في حياتي هو التملُّق والشعور أنك مُجبر على احترامي بداعي الوظيفة والمحافظة على لقمة العيش ذلك لأنني أعدُّ هذا الفعل نوع من أنواع الكذب حيث إنك تخدعني أو هكذا تظنُّ، بحيث تُظهِر لي شخصية لا تمتُّ لشخصيتك الحقيقية بصلة وذلك بداعي المحافظة على العميل حتى ولو كان ذلك العميل هو مريض يحتاج لمن يساعده.. هذا ما سوف تفعله تلك السكرتيرة القادمة باتجاهي في هذه اللحظة.

فتاة جميلة في منتصف العشرينيات تظنُّ أنها مضطرة لارتداء تنوره قصيرة وضيقة وقميص مفتوح الأزرار العلوية لتظهر مفاتنها فتكون بذلك أحد أسباب عدم تغيير المرضى للطبيب. هذا بالطبع ما نستطيع أن نسميه "العُهر الوظيفي"، ها هي الآن تجلس أمامي.. أظنُّ أنها تريد بعض المعلومات عني، ولعلني أتساءل.. ألا يستطيع الطبيب أن يسألني ما يشاء في أثناء الجلسة؟ أظن أنني قد أجبتُ على ذلك من قبل، فهي تجلس مع المرضى بابتسامة ساحرة وحركات مبالغ بها لكي تبرز منحنياتها فتحافظ العيادة بذلك على عملائها. ومن ثَمَّ تحافظ بدورها على وظيفتها، ها هي الآن تأخذ نَفَسًا باردا يعلو صدرها فتسرق به نظري أو هكذا تظنُّ.. وها هي تخرجه نفسا مُنتهبًا وتزفره ناحية وجهي لتشعل بذلك شهوتي فتكون قد نجحت في التأكد أنني لن أُغيِّر الطبيب.. نعم.. لم تعد المحافظة على المرضى أمر يرتبط ببراعة الطبيب بقدر ما هو يرتبط ببراعة السكرتيرة وأناقتها.

- أهلاً بك يا سيدي في مركزنا للطبِّ النفسي.. نحن نعدُك بأنه مهما تكن مشكلتك فسوف يستطيع دكتور شادي مساعدتك.

يبدو أنها متمكنة من مهنتها وأظن أن معظم حِيلها تنطلي دائمًا على معظم العملاء، ولكني لم أرد بل اكتفيتُ بابتسامة وإيماءة، ثم طلبتْ مني أن أُجيب عن بعض الأسئلة التي ستساعد الطبيب على فهم مشكلتي، ومن ثَمَّ سيتمكن من مساعدتي، أظن أنها تحاول أن تسحبني إلى نقاش لن أخرج منه إلا بصداع؛ لذلك كان يجبُ عليَّ أن أُنهي هذا الأمر بسرعة حتى أقي نفس الصداع، أنا أُدعى ماجد.. 35 سنة.. أرمل، وهذا كل ما أستطيع أن أخبرك به وأي معلومات أخرى أُفضِّلَ أن تكون بيني وبين الطبيب وأظنُّ أن هذا من حقي.

استشعرت السكرتيرة أنني لا أريد أن أخبرها بأي شيءٍ ولهذا لم تجبني، بل ابتسمت في خجلٍ ثم قالت لي إنني لن أنتظر أكثر من عشرين دقيقة حتى أُقابِلَ الطبيب.

***

كابوس (1)

صَدَقَت السكرتيرة ولم أنتظر أكثر من عشرين دقيقة حتى دخلتُ إلى الطبيب لأبدأ أولى جلساتي معه، كانت غرفته مختلفة كليًّا عن غرفة الانتظار، فهي كبيرة جدًّا ومن الواضح أنها كانت عبارة عن غرفتين منفصلتين ولكنهما أصبحتا غرفة واحدة وذلك بالطبع بعد أن أُزيل الجدار الفاصل بينهما، كما أن تصميمها بسيط جدًّا، ففي أحد أركانها مكتب الطبيب، ومن خلفه مكتبة صغيرة، وفي مواجهة المكتب كرسيان أحدهما عادي والآخر متأرجح، أما في ذلك الركن توجد أريكة تبدو في هيئتها أنها مريحة وفي الركن الأخير يوجد سرير متأرجح متدلٍّ من السقف. أما باقي الغرفة لا يملؤها إلا الفراغ، ورأيي في ذلك أن الطبيب لا يريد أن يملأ عقول مرضاه بتفاصيل كثيرة قد تشغلهم عن ذكر أي شيء قد يساعده على مساعدتهم، وعندما دخلتُ إلى الغرفة اتجهتُ للشخص الوحيد الذي يوجد بها، الذي هو بالتأكيد الدكتور شادي.. يبدو أنه شخص أليف وهادئ

أيضًا.. شخص متوسّط الطول، أظنُّ أنه قد تخطى الأربعين منذ عام أو اثنين على أقصى تقدير، وما حبَّبني فيه أكثر أنه لا يضع تلك الابتسامة المُستفزة التي يضعها معظم الأطباء والتي يظنون أنها تطمئن المرضى.

أرجو أن تكونوا ما تزالون تذكرون إخباري لكم أنني سأفعل المستحيل لأحول بيني وبين فقدان السيطرة. وكان من الواضح أنني بدأتُ أولى مراحل مقاومتي منذ أن جلست على ذلك الكرسي المقابل لمكتبه، كما أنني أظنه بدأ أولى حيله منذ أن جلستُ على هذا الكرسي؛ فهو كرسي مريح جدًّا لدرجة أنني أشعر بأنني أريد أن أُكمل بقية حياتي جالسًا عليه.. أظن أنها إحدى حيله الجيدة التي يخدع بها معظم المرضى الذين يشعرون بالراحة التامة بمجرد جلوسهم أمام ذلك الطبيب الجيد بالنسبة لهم. مع أن الفضل كله يرجع لذلك الكرسي المريح، أنتم بالتأكيد تعلمون جيدًا أنه في مثل هذه المواقف يكون الطبيب دائمًا هو مُفتتِح النقاش. ولكنني للأسف لم أكن قادرًا على احتمال أي نقاش قد يكون سخيفًا ويحثني على تغيير رأيي ومغادرة هذا المكان الذي أحاول أن أختلق أي سبب لمغادرته.. أنا لديَ ما أريد أن أقوله أولاً فقد انتظرتُ كثيرًا مُحتملاً ذلك الحمل الثقيل، وأريدُ أن أُفضي به لأحد قبل أن أفقد عقلي.. عقلي الذي قرَّر أن يتقيأ تلك الذكرى أو لن نكون مسئولا عن أي وساوس قد

تبدأ بمهاجمتي والتي من شأنها أن تُحيل عقلي بعيد عن الصواب، لذلك عندما لامس جسدي ذاك الكرسي المريح شرع لساني في الحديث..
أيًا كان الروتين الذي تتبعه مع مرضاك أظن أنني سأكسره، فأنا أحمل ما أريد أن أخبرك به أولاً قبل أن تبدأ جلستك، وأيًّا كانت أسئلتك فسوف أجيبك عنها، ولكن بعد أن أتحدث أولاً، ابتسم بكل هدوء ثم حرَّك رأسه متفهمًا وأشار بيده إليّ فيما معناه أن أقول ما أريد.

***

ها هي تلك الصور المؤذية بدأت تهاجم عقلي بمجرد محاولة التذكُّر وكأن عقلي هو الآخر يريد أن يتخلص منها أو على الأقل يريد مشاركتها مع عقلٍ آخر ظنًّ منه أن المشاركة قد تخفف معاناته..
في كل مرة أحاول أن أتذكر فيها هذا الكابوس تكون التفاصيل أكثر وضوحًا، وتكون الأحداث أكثر واقعية؛ لذلك أنا أضمن لك أيها الطبيب أنني سأنقل ذلك الكابوس كما ينبغي، وأتمنى أن تكون جادًّا في مساعدتي، فأنا لم آتِ إليك إلا لتنقذني من تلك المشاهد التي قد تُلقي بعقلي في أعمق آبار الجنون.

لتعلم أيها الطبيب أنني وبمجرد أن يلامس رأسي الوسادة وتلتحم جفوني فإنني أجد نفسي في منزلي أقف في بداية غرفة المعيشة من ناحية باب المنزل، وما ألبث أن أعي ذلك حتى أشاهد شخصا ما ممدَّدًا على أرض هذه الغرفة فأتَّجه إليه بسرعة لأجد الفاجعة. إنه ابنتي صاحبة

الأربعة أعوام.. ملقاة على الأرض.. راقدة في بركة من الدماء.. بركة ما زالت تزداد اتساعًا حيث إن منبعها ما زال يساعدها على ذلك، وما منبعها إلا جسد صغيرتي الممتلئ بجروح عديدة تبدو خطيرة. وما أنا في تلك اللحظة إلا كتلة لحم غبية عاجزة عن التفكير. بل لم أعد قادرًا إلا على الصراخ..

"سارة" ماذا حدث؟ ما الذي أصابك؟ وكيف تأذيت هكذا؟ "سارة" أجيبني.. هل ماتت؟ هل فقدتُها للأبد كما فقدت والدها؟ وفي نهاية هذه الأسئلة التي أسألها لنفسي في كل مرة أرى هذا الكابوس يهديني عقلي إلى الفعل نفسه حيث أضع يدي على رقبتها ويا لفرحتي العارمة والمتكررة بالطبع.. إنني أشعر بنبضها.. إنها ما تزال على قيد الحياة، ولهذا كان يجب عليَّ أن أحضر المساعدة سريعًا وإلا سأفقدها.. تماسكي يا سارة سأحضر المساعدة..لا.. لن ننتظر بل سنذهب نحن للمساعدة..نعم..لقد قررتُ أن أصطحبها للمستشفى؛ لذلك حملتها سريعًا وقررتُ أن أغادر المنزل، ولكنني وبعد أن حملتها واتجهت بها ناحية الباب..

بالطبع كان يجب عليَّ أن أفكر في إمكانية حدوث هذا من الأساس. فلو فكرت في ذلك لاستنتجتُ أنني لستُ في الواقع ولكنني في كل مرة لا أكون مهتمًا إلا بالتفكير في حالة سارة. ماذا سأفعل الآن حتى أنقذها؟ كيف سأساعدُها؟ ودائمًا ما تكون الإجابة هي (لا

أعلم)، بعد ذلك أضعُها في المكان الذي من المفترض أن يكون أمام باب المنزل ثم أبدأ في محاولات كثيرة من التفكير، ولكني في كل مرة لا أستطيع أن أهتدي لشيء..

لحظة.. كيف لم أفكر في هذا من قبل، وقد تظنونني غبيًّا عندما تعرفون أنني لم أهتد إلى ذلك الحل من قبل.. ببساطة، لقد قررتُ أن أتصل بالطوارئ كي ترسل المساعدة لذلك أخرجت الهاتف النقال من جيب سترتي وضغط الأرقام (تسعة.. واحد.. واحد).. على الرغم من أنها ثلاثة أرقام فقط إلا أنني شعرتُ أني استغرقتُ دهرًا لأُجري هذا الاتصال.. ها هو ذلك الصوت النسائي الذي أكاد أجزم في كل مرة أرى بها ذاك الحلم أنني أعرفه ولكنني لا أذكر لمن هو.. ها هو ذلك الصوت يجيبني (مع حضرتك خدمة الطوارئ يا فندم.. إزاي نقدر نساعد حضرتك؟)

كان صوتها كطوق نجاة بالنسبة لي؛ لذلك لم أدخر جهدًا في الشرح، ولكني وفي منتصف شرحي ودون أي مقدمات أغلقتْ تلك المرأة السماعة لتعلن عن انتهاء المكالمة.. ماذا حدث؟ لماذا أغلقت الخط؟ لماذا لم تنتظر تلك المرأة لتسمع مشكلتي؟ هذا ما لا أستطيع تفسيره.. لذلك وبكلّ سخطٍ وحنقٍ أُعيد الاتصال لتعاود تلك المرأة الإجابة ولكنني في هذه المرة لا أسمح لها بإكمال جملتها المستفزة التي تظهر لي بها أنها أغبى الكائنات على الإطلاق، بل أبدأ في السباب

والصراخ: (لماذا وضعت السماعة أيتها الغبية؟ إنني أريد المساعدة.. إن ابنتي تموت)، ولكنها لم تجب على أي من حديثي، بل بدأت في ترديد: (أفندم...أفندم...ألو....) ثم ظهر صوت نسائي آخر يسألها: (مين يا سما؟) فأجابتها: (مفيش حد.. بأرفع السماعة بس محدش بيرد)، عندما سمعتُ تلك المحادثة القصيرة والعجيبة في الوقت نفسه. صرختُ دون وعي: (مين اللي مش بيرد يا طارشة.. إنتي شكلك طارشة.. أبوس إيدك بنتي بتموت)، ولكنها أيضًا لم ترد على ذلك، بل أعادت فعلتها الأخيرة ووضعت سماعة الهاتف. لم أعد أعلم.. لماذا لا تساعدني؟ لماذا تضع سماعة الهاتف في كل مرة دون أن تسمعني؟ في بادئ الأمر ظننتُ أن صوتي منخفض لذلك اتصلتُ في المرة الثالثة. وبدأت في التحدث بصوت مرتفع حتى أنني لم أكن أتحدث بل كنتُ أصرخ، ولكنها أعادت فعلتها مرة ثالثة. ما الذي يحدث؟ هل أحدثها بلغة غير لغتها، ولكنها كانت تتحدث مع زميلتها بلغتي نفسها.. إنها وبالتأكيد تتحدث اللغة العربية مثلي تمامًا. وفجأة ودون أي سابق إنذار.. أدرك الأمر.. لقد علمت ما هو السبب خلف عدم فهمها لي أو بالأحرى السبب خلف عدم سماعها لي.. لقد علمتُ الحقيقة بمجرد أن تفاجأت بما هو موجود في يدي اليسرى.. إنه لساني.. يا إلهي إن لساني مقطوع.

ـ لم يكن يعني هذا لي في ذلك الوقت إلا أن الهاتف هو الآخر أصبح دون فائدة، ولن أستطيع إنقاذ سارة.. سارة.. أظنها ماتت.. أظنني فقدتُها للأبد كما فقدتُ أمَّها . لم أعد أستطيع أن أفعل أي شيءٍ قد ينقذها؛ لذلك وجدت نفسي أستسلمُ لأجلس بجوارها وأبكي.. ثم تبدأ الظلمة في التخييم على المكان حتى أدرك أنني على فراشي وأنني قد استيقظتُ أخيرًا، ولكن لساني يظلُّ معقودًا لبضع دقائق حتى أنني أتحسسه لأطمئن بأنه موجود في مكانه.

(لقد تكرر هذا الكابوس خمس مرات في هذا الأسبوع فقط.. لقد بدأ يبعدني عن الصواب.. لقد بدأ يُفقدني السيطرة "؛ لهذا أتيت إليك").. تلك هي الجملة التي أنهيتُ بها حديثي مع الطبيب، وبها توقَّف قلمه عن الحركة، والذي لم يتوقف منذ بدأتُ في سرد الكابوس.

***

الجلسة الأولى

(قاضٍ عالمي)

منذ أن دخل إلى مكتبي وأنا أشعر أنه شخصٌ مختلف فهو هادئ لأبعد الحدود.. صوته أجش يُجبرك على سماعه.. حركاته هادئة ومتناسقة ولكنها لا تفتقد الثقة بالنفس وتعبيراته مسالمة للغاية.. حتى ردود أفعاله مدروسة بدقة.

في داخل هذه الغرفة.. أنا مَن يضع القوانين.. أنا من يعتمد روتين العمل.. أنا مَن يسأل.. أنا مَن يتحدث أولاً، ولكنني في هذه المرة تخليتُ عن تلك المبادرة لرؤيتي الضياع في عينيه.. الألم على وجهه.. الهجوم في أفعاله. فقد هاجم روتيني بلا رحمة وكسر قوانيني من أجل أن يبدأ هو الحديث: لذلك أدركتُ أن ما سيقوله هو حمل ثقيل على ذهنه يريد التخلص منه. ولن يُذعن لأي بديل عن ذلك: ولهذا السبب بالأخص تركته يتحدث ليُخرج ما في جوفه. كما أنني

أصبو دائمًا إلى أن يشعر المرضى بالراحة وقد شعرتُ بأنه لن يرتاح إلا بعد أن يتخلَّص مما يحمله.

منذ أن بدأ في سرد كابوسه وهو متمالك نفسه ومحافظ على رباطة جأشه حتى وهو يخبرني بشكل ابنته المصابة بشدة وكيف لا يستطيع أن يتخلى عنها.. ولكن تلك الدمعة لم تستطع أن تبقى في مكانها عندما أخبرني أنه اكتشف أمر لسانه المقطوع.. يبدو أن هذا الأمر يؤثر فيه كثيرًا، وأظن أن ذلك هو سبب عدم تحمله للحلم؛ وهو أيضًا سبب شعوره بفقدان السيطرة على الرغم أن منظره يوضح أنه بعيد كل البعد عن تلك المرحلة، في الحقيقة لا أظن أن قطع اللسان في حد ذاته هو المشكلة، ولكنني أظن أن عدم قدرته على مساعدة ابنته بسبب لسانه المقطوع هي مشكلته الأساسية وأظن أنني يجب أن أبدأ من هذه النقطة.. أقصد "قطع اللسان"، ولكن كان هناك شيء مُبهَم لم يوضحه لي في أثناء الكابوس؛ لذلك فضلت أن أستوضحه أولاً ثم أعود لأبدأ من حيث أريد.

يبدو أن بكاءه قد هدأ الآن، وأظن أنه قادر على استقبال الأسئلة.. لا أظنه سيشعر بالهدوء أو الرضا إذا رسمت ابتسامة مصطنعة، ولكنني أيضًا لا أعلم أي وجه سيفضل.. لن أبتسم ولن أطمئنه ولن أطلب منه الهدوء، فهو بالفعل هادئ، بل سأبدأ باستجوابه بطريقة ضباط الشرطة أي أنني سأتخذ طريقا هجوميًّا.

- لقد أخبرتني أنك تعرف ذلك الصوت جيدًا، لكنك لم تكن تستطيع تذكره، فهل عندما ذكر اسم "سما " في الكابوس استطعت أن تتذكر صاحبته؟

- نعم.. لقد تذكرتها جيدًا، إنها متهمة، كنت قد حكمت عليها بقطع اللسان.

تفاجأتُ كثيرًا عندما سمعتُ ذلك فهذه هي المرة الأولى التي أستقبلُ فيها مريضًا يعمل قاضيًا عالميًّا.. يبدو أن الأمر سيكون مثيرًا.

القاضي العالمي: هي وظيفة مرموقة في المجتمع وهو القاضي الذي يكون متخصصًا في الفصل في القضايا المتعلقة بالكذب وذلك بموجب الباب الأول في دساتير البلاد، ويُعيَّن بقرار جمهوري من رئيس الدولة مباشرة ولا يتم فصله أو إيقافه عن العمل إلا بقرار جمهوري.

عندما علمتُ بأنه يعمل قاضيًا عالميًّا تأكدتُ أنني سأحصل على متعة لا مثيل لها، ولكنني في الوقت نفسه تذكَّرت أنني حتى الآن لم أتعرف إليه؛ لذلك طلب منه أن يعرفني بنفسه.

- أنا أُدعى ماجد عنان أحمد.. 35 سنة.. الحالة الاجتماعية أرمل.. تُوفيت زوجتي في حادثة أليمة منذ أربع سنوات، وتلك المدة أيضًا تمثل عمر ابنتي سارة.. أنهيتُ كلية الحقوق بتقديرٍ عالٍ ساعدني على دخول النيابة ثم بعد ذلك سافرت لأحصل على دبلومة قاضٍ عالمي

وبالفعل أصبحتُ قاضيًا عالميًا في سن السابعة والعشرين، وبعد فترة قصيرة من ذلك تعرفتُ إلى زوجتي وسرعان ما تمت الخطبة ثم تزوجنا ولكنها وللأسف تُوفيت بعد زواجنا بثلاثة أعوام تُوفيت بعد أسبوع واحد من ولادتها لسارة، بعد ذلك بقليل أصبحت تراودني تلك الأحلام القطيعة، ولكنني كنتُ أتعامل معها بهدوء، ولكن في الفترة الأخيرة تطور الأمر فبدأت تدخل القضايا التي أُكلّف بها في تلك الأحلام لذلك أتيتُ إليك خوفًا من أن يؤثر ذلك في أحكامي القضائية.

- كل هذا مهم، ولكنك حتى الآن لم تجبني عن سؤالي.. من سما؟ ولماذا تأتيك في أحلامك؟

***

كنتُ أعلم أن هدفه الأساسي من الحضور في هذه الجلسة هو التخلص من كابوسه؛ لذلك قررتُ أن أركز هذه المرة على الكابوس كي أُشعره بالراحة.. على الأقل حتى الجلسة التالية، ولذلك فقد سألته مرة أخرى عن تلك المرأة التي تُدعى سما، قال لي إنه لن يُخبرني عنها، بل سيعرفني إليها..من هي؟ ماذا فعلت؟ كيف ذلك؟! هذا ما سألته عنه، فما كان منه إلا أنه أخرج من جيبه قرصًا صلبًا وأعطاني إياه، وطلب مني تشغيله على الحاسوب.. يبدو أن الأمر سيصبح أكثر إثارة مما توقعت.

القضية الأولى

"كذبة ليست حمراء"

إن ما أفعله الآن يعاقب عليه القانون بشدة، حيث إن تسريب فيديو لجلسة حكم في قضية تتعلق بالكذب هي جريمة يعاقب عليها القانون بالحبس عشر سنوات على الأقل، ولكنني قد أقدمتُ على هذا الفعل وانتهى الأمر، فالقرص الصلب الذي أعطيتُ الطبيب إياه يحتوي على تصوير حي لجلستي الأخيرة التي كانت منذ أسبوع حيث كانت المتهمة امرأة تُدعى "سما "، وإن أراد أحد أن يسأل.. هل هي المرأة نفسها التي ترد على مكالمتي في الكابوس في هيئة فتاة خدمة الطوارئ؟ فإجابتي هي "نعم".. إنها الشخص نفسه الذي يستمتع بغلق السماعة في وجهي.. إنها الشخص نفس الذي لا يفوت فرصة لخذلاني وعدم مساعدتي.

يبدأ ذلك التسجيل بصورتي وأنا أجلس على المنصة وتلك المتهمة التي تُدعى سما تقف أمامي.. هي بالتأكيد في موقف لا تُحسد عليه كما أن توترها قد ملأ الكأس وفاض وقد ظهر ذلك جليًا في فقدانها التام للتركيز.. مسكينة يبدو أنها قد علمت مسبقًا بما أوصت به النيابة في مذكرتها التفصيلية عن القضية حيث قد أوصت المحكمة بعقوبة الموت باعتبار تصنيفها للكذبة على أنها كذبة حمراء.

لا تختلف المحاكم في هذا القرن عن القرن السابق، بل تحتوي على الأركان نفسها كما أنها تتبع الروتين نفسه إلا في شيء واحد فقط، فهي تكتفي بمذكرة النيابة التفصيلة وتعتبر أنه لا داعي لمرافعة النيابة وفي مقابل ذلك تعطي المحكمة نفسها فترة كافية لدراسة المذكرة جيدًا كما أنها في أثناء الجلسة تعطى المتهمين فرصة كافية للدفاع عن أنفسهم ذلك لأن أدوار المحامين تنتهي مع انتهاء النيابة من عملها وتقديمها للمذكرة التفصيلية.. لا يمكننا بالطبع أن نغفل أنه في أكثر من 98% من القضايا تحكم المحكمة بما أوصت به النيابة في مذكرتها.

هأنذا أجلس على المنصة لأبدأ المحاكمة وبالتأكيد مع بدء المحاكمة سأبدأ بتفعيل أكثر الأشياء الروتينية مللاً وإحراجًا على الإطلاق، حيث إن المحاكم في هذا القرن أصبحت تأخذُ شكلاً كلاسيكيًا بصورة كاملة لدرجة أنها تلزم جميع من بداخل المحكمة أن يتحدث باللغة العربية الفصحى.. هل تتخيلون ذلك؟! أظن أنها محاولة أخيرة

لإنقاذ اللغة العربية التي قلما يتحدث بها أهل هذا الزمان؛ ولهذا فإن الجميع يعدُّون ذلك بروتوكولاً تافهًا ولكنه سيظل من المحرم كسره وهو أيضا شيء قد تقبَّله العاملون في المحكمة منذ مدة، ولم يعد من الممكن تغييره، لذلك عندما بدأت المحاكمة ظهرت شخصيتي الكرتونية لتبدأ في الحديث، وليس أمام سما بالتأكيد إلا أن تختار إحدى شخصيات الرسوم المتحركة لتتحدث بلسانها.

بعد أن أقسمت سما على قول الصدق ولا شيء غير الصدق شرعت في توجيه الاتهامات لها .

– المذكرة التي أمامي توضح أنك زوَّرتِ معلومة في سجل التأمين الصحي الخاص بابنتك.. هذه المعلومة تقول إنها لم تُجري أي جراحة تحت غطاء التأمين الصحي على الرغم من أنه قد تم إجراء جراحة لها منذ أربعة تحت غطاء التأمين الصحي.. ما مبرراتك لذلك؟

– لقد أجريتُ لها الجراحة بالفعل تحت غطاء التأمين الصحي ولكن تلك الجراحة قد فشلت، ومن ثم قدَّمتُ طلبًا بأن تُعاد لها الجراحة، ولكنهم رفضوا ذلك متعللين بأن الـتأمين الصحي محدود جدًّا.. حتى إن رئيس التأمين الصحي قال لي: (إن لكل طفل محاولة واحدة وقد فشلت تلك التي كانت لابنتك، فإما أن تجريها بالتكاليف الكاملة وإما أن تدعو الله أن تموت ابنتك في سلام).. لم أستسلم ولكنني راسلتُ المسئولين أترجاهم، فأنا لا أملك ذلك المقدار من

المال، ولكن أحدًا لم يستجب لأيٍّ من مراسلاتي ولهذا لم يتبقَّ لديَّ أي خيار إلا تزوير ملف التأمين الصحي لها حتى أتمكن من مساعدتها.. لا يمكنهم أن يلوموني، فهذا هو خطؤهم من البداية.

– وكيف ذلك؟

– إن أولائك الذين يديرون التأمين الصحي هم أكثر البشر فقدانًا للإنسانية فهم يعاملون المرضى بلا رحمة.. يعاملونهم كما لو أنهم يقدمون إليهم المساعدة من جيوب أمهاتهم، كما أنهم يعاملوننا نحن ذوي المرضى بكل تعجرف كما لو أننا نطلب منهم إحسانًا، وبعد أن يوضع اسمك أو اسم قريبك على قائمة الانتظار تجدهم يحضرون لك طبيبًا غرًّا قد تكون هذه هي المرة الأولى التي يحمل بها مشرطًا هذا بالطبع إن لم تمت وأنت تنتظر.

وبعد كل هذا يريدون للجراحة أن تنجح! وعندما تفشل الجراحة يطالبونك بعدم الاعتراض.. أتعلم.. إن معنى كلمة كذب في قاموسي هي (منظمة التأمين الصحي) فهي لا تصدر إلا أوهامًا ولا تعطيك إلا أملاً كاذبًا في الحياة، فهم يعطونك طبيبًا غرًّا ليقتل طفلك.. أي إنها تعطيك "جراحة كاذبة"، أو أنهم يعطونك دواء المادة الفعالة به متدنية جدًّا، هذا إن كانت موجودة في الأصل.. أي إنهم يعطونك "دواء كاذبًا".

لقد كنتُ متأثرًا للغاية وهي تخبرني باعترافها.. اعتراف أعلم أن جزءًا كبيرًا منه حقيقيًّا، ولهذا كدت أن أبكي وأنا أخبرها أن النيابة العامة قد اعتبرت أن تزويرها لتلك المعلومة وإجراء ابنتها الجراحة لمرة أخرى قد حرم طفلاً آخر من حقه في أن يأخذ فرصته لإجراء الجراحة لذلك.. فقد أوصت النيابة بإعدامها..

عندما سمعت سما توصية النيابة عادت للبكاء الشديد.. بكاء حاولت أن توقفه أكثر من مرة لتخبرني بأنها لم تكن تقصد بل كانت تحاول فقط إنقاذ ابنتها.

– ولماذا لم تفكري في ذلك الطفل الذي سلبت حقه في المحاولة؟

– عن أي محاولة تتحدث؟ محاولة أن يعيش! أليس الهدف من الجراحة أن يعيش أحدهم؟ ها قد عاشت ابنتي، لقد أخبرني الطبيب أنه إن لم تتم إعادة الجراحة لابنتي خلال ثلاثة أشهر فسوف تموت.. أتعلم أن الموعد التالي الذي قد حددوه لابنتي لإعادة الجراحة لها هو بعد عام من الجراحة الأولى، أي أنهم كانوا يعطونني موعدًا وهم يعلمون جيدًا أن ابنتي ستفارق الحياة حتى قبل أن تقترب من ذلك الموعد.. أرجوك يا سيادة القاضي إن كان إنقاذ حياة الأطفال هو الهدف كما تقول، فهل إنقاذي لحياة ابنتي لا يشكل لديكم فارقًا بأي قدر حتى ولو كان ضئيلاً؟ لقد قلت كل ما لديَّ ولهذا أتمنى منك يا سيدي أن تكون قد تفهمت أسبابي لما فعلت أرجو أن تكون قد

تفهمت أن الآباء لا يفكرون في العواقب إن كان الأمر يتعلق بإنقاذ أبنائهم.

لم أكن أعلم أن تلك القضية ستكون بهذه الصعوبة.. فأنا أحكم على شخص كذب من أجل أن ينقذ أعز الناس إلى قلبه.. أظن أن كلاً منا كان سيفعل ذلك.. أظن أنني كنت سأفعل ذلك إذا لزم الأمر فبالتأكيد لن أترك سارة يصيبها أذًى..

لم أعد أعلم ماذا أفعل؟ هل أحكم عليها بالموت لأنها أنقذت ابنتها؟ هل هذا هو العدل؟ لقد كان الميزان ليس واضحًا.. ومن ثم لم أتمكن من رؤية أي من كفتيه راجحة؟

***

عند هذه النقطة انتهى التسجيل ليعبر الطبيب عن استيائه فقد كانت نقطة محورية في الجلسة.. محورية لدرجة أنه كان مستعدًا لأن يضحي بنصف عمره كي يشاهد تلك النقطة. ولكن عندما شاهدت تلك النظرة على وجهه بدأت أقصُّ عليه باقي الأحداث.. أخبرتُه أنني رفعت الجلسة مدة نصف ساعة حتى أستطيع أن أتأكد من صحة ما قالته المتهمة، ولكي أفعل ذلك طلبت معلومات عن حالة ابنتها وعن الطبيب الذي قام بالجراحة وطلبت معلومات أخرى عن حالتها الاجتماعية، وللأسف فقد كانت صادقة في كل ما قالته. حيث إن تلك الجراحة هي أول جراحة حقيقية يجريها ذلك الطبيب منذ أن

تخرج في كلية الطب، كما أن حالة ابنتها كانت حرجة جدًا لدرجة أن التقرير كان به ملحوظة بأنها معرضة لسكتة قلبية في أي وقت. حتى أنني تأكدت أن حالتها الاجتماعية كانت سيئة بالفعل لدرجة أنها لا تستطيع أن تتحمل تكاليف إجراء كشف عند أحد الأطباء المتمكنين.. فما بالك بتكاليف كاملة لجراحة من هذا النوع، ولذلك عندما عدتُ إلى الجلسة كنتُ رحيمًا بها وحكمتُ عليها بارتكابها لكذبة ليست حمراء.

تفاجأ الطبيب ونظر إليَّ وكأنه كان يتهمني (لماذا؟ ألم تقر أنها لم تكن تكذب؟)

- أرجو منك أن تفهمني.. عندما تقع أي جريمة يدرسها قسم الشئون المعنوية ثم يحدد: هل لها علاقة بالكذب أم لا؟ فإذا كانت هذه الجريمة ليس لها علاقة بالكذب من وجهة نظر الشئون المعنوية يرسلونها إلى النيابة العامة لتحدد مسارها أما إذا أثبتوا أن هذه الجريمة لها علاقة بالكذب فيرسلونها إلى ما يُسمى (بنيابة ذات الصلة) وهي النيابة التي تحقق بالجرائم التي لها علاقة بالكذب. ومن ثَمَّ تقوم هذه النيابة بالتحقيقات وفي النهاية تقدم مذكرها للمحكمة كما أنها تذكر رأيها في القضية وتوصي بعقوبة،ولتعلم أن أكثر من 98% من القضايا يتوافق فيها رأي المحكمة مع ما توصي به النيابة. في الحقيقة.. أن تدخل أي قضية إلى نيابة ذات الصلة فهذا يعني أنه تم الإقرار بأنها

كذبة ومن ثم يجب أن يحكم فيها بأحد الحكمين إما الموت أو قطع اللسان، للأسف لا يوجد حكم آخر يمكن توقيعه على المتهم؛ حتى أن القاضي ليس من حقه أن يعتذر عن القضية ويتركها لقاضٍ آخر، بمعنى أدق يمكنك أن تختصر مهمة القاضي العالمي في أنه يحكم هل الكذبة حمراء أم لا؟ وصدقني عندما أقول إن مجرد مخالفتي لرأى مذكرة النيابة شيء كبير جعل معظم الصحف تهاجمني، مع أن ذلك ليس مخالفًا للقانون ولكنه بالطبع سيكون مادة دسمة للصحف.

***

تقرير (1)

في اللحظة التي بدأت أفهم فيها مشكلته حددت هدفي من هذه الجلسة.. لا أعلم لماذا هو متأكد من أنه على حافة الانهيار؟ ما الذي جعله متأكد أنه سيفقد السيطرة على الرغم من أنه بعيد كل البعد عن تلك المرحلة؟! ولكنني أظن أن مشاعره المتصارعة وأعصابه المفتتة أنتجتا وأخرجتا له ذاك الكابوس الذي هو سبب حضوره إليَّ.. ومن هنا علمت أن هدفي من هذه الجلسة هو تهدئة تلك المشاعر المتصارعة وإعادة بناء تلك الأعصاب المفتتة.

أن تعري جسدك أمام من لا تعرفه هو فعل يخالف الفطرة لذلك هو شيء صعب جدًّا لدى الأسوياء، بل يعتبره البعض دربًا من الجنون مع العلم بأن الجسد هو شيء خارجي، لذلك فمن المنطقي أن تكون تعرية كل ما هو داخلي مهمة أصعب بكثير.. هنا تكمن صعوبة مهمة الطبيب النفسي حيث إنه يطلب من مرضاه تعرية كل ما هو داخلي ومشاركته إياه، فهو يريد أن يعرف مشاعرهم وأحاسيسهم وباطنهم

بل يمتدُّ ذلك إلى حاجته لأن يعرف.. كيف يفكرون؟ كيف يتهامسون مع أنفسهم ليخرجوا قراراتهم؟ ولكي يقبل المرضى بذلك النوع من العُري يجب أن يكتسب الطبيب ثقتهم وتلك هي أصعب مهام الطبيب والتي إن تخطاها سيكون قادرًا على الحصول على أي معلومة منهم مهما تكن خاصة ودون أي إحراج كما لو أنهم يحدثون أنفسهم وكان ذلك هو هدفي الآخر، والآن وبعد مواجهتي الأولى معه وبعد أن أنهيت تلك الجلسة لم يبقَ إلا أن أكتب تقريري الأول عن تلك الحالة التي أظنها مختلفة.

***

تقرير (1)

سبب المرض: "الكذب".. كان الكذب فيما مضى جريمة أخلاقية لا يُعاقب عليها القانون لذلك استهتر بها البشر حتى أدى ذلك إلى خراب الأرض، أما في حاضرنا فقد تعاملنا منذ صغرنا مع الكذب على أنه جريمة يُعاقب عليها القانون لذلك أصبحنا نخافه، ولكن المشكلة أننا أصبحنا نخافه من باب الخوف من العقاب وليس من باب المبادئ. وإذا كان يجب علينا أن ننظر إلى الكذب على أنه عامل أساسي في وصول ماجد إلى هذه الحالة من التوتر والتشتت الفكري نجد أن السبب في ذلك هي المقارنة غير المفهومة بين الكذب من جهة وقلة الحيلة من جهة أخرى.. فإن لم تكذب هذه المرأة لماتت ابنتها.. فهل يطلب القانون من هذه المرأة أن تصدق؟

على الرغم أن الصدق في هذه الحالة يعني موت ابنتها وبقاءها في شقاء هذا بالطبع إن استطاعت البقاء.. فإنني بالطبع لا أستطيع أن أفسركيف لنا أن نعتبر الكذب جريمة شنيعة إذا كانت قلة الحيلة هي السبب.

أعراض المرض: لقد هاجمت تلك المشاعر المتضاربة والناتجة من القضية ضمير المريض مما أدى في النهاية إلى حالة من تأنيب الضمير والتي تمثلت بشكل واضح في كابوس يهيء له فقدانه لأقرب الأشخاص إلى قلبه. ومن ثم وضعه ذلك في حالة توتر قد تؤثر بشكل أو بآخر في وظيفته .

(1)

تأثير رد فعل الصحافة: إن الهجوم الشرس من الصحافة على حكمه حيث اتهمته ب الظلم لأنه خالف رأي النيابة ولم يوقع على المرأة عقوبة الموت، ورغم أنه اختار الحكم المخفف إلا أن هذا الهجوم العنيف لم يجعله يشعر بأنه كان رحيمًا بل جعله يشعر بحالة من الاكتئاب والإحباط،كما أنه تأكد أنه يعيش في مجتمع فقد الشفقة والعطف.. مجتمع فقد الإنسانية.

أعراض مستمرة: كابوس ثالث يزيد مشاعر خوفه على ابنته.

أعراض جديدة :

1) عصبية ظاهرة في طريقة حديثه.

2) فقدان في التركيز.. ظهر جليًّا عندما طلب أن ينام على الأريكة مما يدل على أنه يحتاج إلى تركيز أكثر من السابق حتى يتذكر تفاصيل الكابوس.

توصيات نهاية الجلسة:

1) بعد أن لاحظت حبه الشديد لابنته وخوفه الشديد عليها وخوفه الأشد من فقدانها طلبت منه أن يجعلها تنام بجواره حتى تبث في نفسه شعورًا بأنها قريبة منه للغاية حتى في أثناء نومه. ومن ثم يزداد اطمئنانه عليها.

2) بعد أن لاحظت شعوره بالذنب بعد حكمه على المرأة بقطع اللسان طلبت منه أن يتحقق من أدق الأمور في أي قضية يتولاها في المستقبل حتى يطمئن قلبه ويشعر على الأقل أنه قام بأقصى ما يستطيع.

(2)

ثانيًا

نسمة

ليس من حقِ أحد الطرفين أن ينهي العلاقة دون إبداء أسباب.

فحياته لم تعد ملكه وحده.

القضية الثانية

" تأجيل للتحقيق"

يا ويلتي! لقد أخبروني بأن ذلك لن يحدث وأن القضية لن يعاد فتحها مرة أخرى.. فلماذا فتحت من جديد؟ لقد تحدث إلى بالأمس ذلك الوزير وطلب مني أن أثبت على أقوالي وألاَّ أغيِّرها مهما يقال لي ومهما يوجَّه إلى القاضي من اتهامات.

لا أعلم.. لماذا تتردد تلك الجملة التي أخبرتني بها زوجتي منذ عامين وهي تطلب مني أن أقول الحقيقة وألاَّ أشهد زورًا، ولكن عندما استدعتني المحكمة آنذاك للشهادة في تلك القضية.. لم أقل الصدق..

لقد غضبت زوجتي كثيرًا عندما علمت أنني شهدت زورًا ولكنها وفي النهاية اضطرت إلى أن تتقبل الأمر.. يا لها من جاهلة! ألا تعلم أنهم قد هددوني بالفصل من العمل إن لم أشهد زورًا، فماذا كنت أفعل؟ هل أضيع مستقبل أسرتي من أجل الصدق؟ لا والله.. ثم إنهم هددوني

بإيذاء ابني.. فهل كنتُ أغامر بحياته من أجل الصدق؟ أنا أعلم أنني قد شهدت زورًا ولكنني كنت مضطرًا لذلك.. كان يجب عليَّ أن أنقذ مهنتي وولدي.

فلتنظر إلى أيها القاضي كما تشاء، فأنت لن ترهبني.. لقد كنتُ أنقذ أسرتي.. هذا هو مبرري، ولكن ما يقلقني بحق أنني سمعت أنه قاضي ذو شخصية قوية وأنه لن يهتم بأن المتهم الحقيقي هو ابن وزير أو غير ذلك، ولقد سمعت أنه وفي نهاية قضيته السابقة قد ضرب بمذكرة النيابة عرض الحائط ولم يأخذ رأيها في الاعتبار وحكم على تلك المرأة بقطع اللسان على الرغم من توصيتهم بعقوبة الموت.. إنني الآن وكما فهمت لست مُستدعى شاهدًا بل متهمًا حيث إنه قد ظهر ما يستدعي فتح القضية مرة أخرى، وعندما يحدث ذلك يدخل الشهود حيز التحقيق حيث تضع النيابة في اعتبارها شبهة الشهادة الزور لذلك يتم إرسال أوراق القضية لنيابة ذات الصلة باعتبار بأن الشهادة الزور "كذب".

لقد أخبرني الوزير بالأمس أن النيابة في صفنا وأن جميع الأوراق متطابقة مع شهادتي حيث طلب مني في السابق أن أشهد أن الشخص الذي قد شاهدته يدخل ذاك الزقاق خلف تلك الفتاة كان يرتدى سترة زرقاء على الرغم من أن الشخص الذي رأيته يتبع الفتاة في ذلك الوقت كان يرتدي سترة حمراء، وقد تسببت تلك الشهادة في

خروج المتهم الحقيقي وتوريط شخص آخر حُكم عليه بخمسة وعشرين عامًا لم يمر منها إلا سنتان.. كنت قد ظننتُ أن الباقي سيمر دون مشكلات، ولكن ها هي القضية تفتح من جديد ولا أعلم كيف ستكون النهاية هذه المرة.

هيا أيها القاضي.. هل ستظل تحملق في تلك المذكرة التي أمامك كثيرًا هيا تحدث.. أجل.. أغلق المذكرة وانظر إليَّ.. لا أعلم ماذا ستفعل ولكني أتمنى أن يمرَّ اليوم بسلام، هأنذا أقسم على قول الصدق ولا شيء غير الصدق ولكن هل يظن أنه بذلك سوف يسنيني عن شهادتي.. أظن أنه ستحتاج إلى مجهود أكبر من ذلك ليجعلني أُغيِّر شهادتي.

بعد أن أخبرني بسبب حضوري للشهادة مرة أخرى طلب مني أن أُعيد عليه ما شاهدته في ذلك اليوم، لذلك فقد أعدتُ على مسامعه شهادتي نفسها التي قلتها منذ سنتين.. أخبرته أنني كنت أقف في الشرفة وكانت درجة الحرارة عالية في ذلك اليوم لدرجة أن الشارع كان خاليًا، وفجأة توقفت سيارة أجرة وخرجت منها فتاة سلكت أحد الشوارع الجانبية الضيقة والمظلمة.

وبعد دقيقتين أو ثلاث قَطَعَ شخصٌ من بعيد الشارع الرئيسي ودخل من الشارع الجانبي نفسه الذي سلكته تلك الفتاة، وعندما طلب مني وصف ذلك الشخص أخبرته أن نظري ضعيف ولم أستطع

رؤية ملامحه، ولكنه كان قصير القامة ويرتدي سترة زرقاء اللون، طلب مَني أن أصف له السيارة الأجرة التي نزلت منها الفتاة وهنا أخبرته أنها كانت سيارة بنية اللون.

– هل كان ذلك الشخص الذي يعبر الطريق يمسك أي شيء في يده.

– في الحقيقة يا سيدي.. لا أتذكر.

أخبرته ذلك وأنا أعلم أنه لم تعد لديَّ إجابة عن أي أسئلة أخرى قد يطرحها عليَّ، ولكنه هذه المرة قال جملة لم أفهمها.. جملة ظننت أنه أنهى بها ذلك الموقف الصعب.

– تأجل للتحقق.. رُفعت الجلسة.

التأجيل للتحقق: هو حق يستخدمه القاضي العالمي عندما يشعر بأن هناك لبسًا في مذكرة النيابة وأن المعلومات التي يقدمها الشاهد ناقصة أو ليست واضحة ومن ثم يستخدم القاضي ذلك الحق ليستوضح بعض الأمور بنفسه.

ملحوظة: لا يستخدم أغلب القضاة هذا الحق حيث يجعلهم عُرضة لانتقاض الصحافة التي تصفهم بأنهم يشككون في تحقيقات النيابة.

***

الجلسة الثانية

(الحقيقة)

أظن أنني لن أزيد الطين بلة إذا أعطيته التسجيل الحي للجلسة هذه المرة أيضًا، كما أنني أكره الأسئلة ومن ثم أظن أن ذلك التسجيل سيجيب عن أي تساؤل قد يريد الطبيب طرحه.. لقد كنتُ متوترًا في الليلية التي تسبق الجلسة وكأنها أولى جلسات عملي قاضيًا عالميًّا على الإطلاق.. كنت مشغول البال لدرجة أنني لم أستطع النوم، وعندما بدأت الجلسة أحسست أنها كسابقتها ستثير جدلاً عند الصحافة بعد انتهائها، ولكني صممت على أن تكون الصحافة في صالحي هذه المرة.. بعد أن رفعت الجلسة للتحقيق عدتُ وفي جعبتي الكثير من الأمور التي اكتشفتها..

كنتُ متعجلاً لدرجة أنني كدتُ أن أتحدث بالعامية لكني تذكرت شخصيتي الكارتونية في آخر لحظة، في البداية وكالعادة.. جعلته يقسم على قول الصدق ولا شيء غير الصدق، ثم سألته بصوت قاطع عمَّا إذا كان متمسكًا بكل تفاصيل شهادته التي ألقاها على مسامعي في الجلسة السابقة وللأسف فقد صدق على ذلك، وكم كنت أتمنى أن يفعل حتى أستمتع بإسقاطه، في الحقيقة لقد كنت حريصًا على عدم تسريب سبب إعادة التحقيق مرة أخرى.. الجميع كان يعلم أن دليلاً جديدًا قد طرأ على القضية مما أظهر خللاً في معطياتها واستوجب فتحها مرة أخرى، ولكن أحد لا يعلم ما هو هذا الدليل.. على الرغم من أن القضية كانت قضية اغتصاب حيث تبع شابٌ هذه الفتاة إلى أحد الشوارع الضيقة والمظلمة ثم أفقدها الوعي واغتصبها، إلا أن القضية قد أُغلقت سريعًا لأن الضحية قد وقعت في غيبوبة ولم يُستمع إلى أقوالها، ولكن بعد سنتين وبكل بساطة استفاقت الفتاة من الغيبوبة وعندما تم أخذ أقوالها في الأسبوع المنصرم.. قالت إنما لم تشاهد من هاجمها من الخلف ولكنها شاهدت ذراعه وهي ملتفة حول رقبتها قبل أن تفقد الوعي وقد قالت إن الشخص الذي هاجمها كان يرتدي سترة حمراء وليست زرقاء كما ذكر الشاهد الأساسي، وهنا وجب إعادة فتح القضية مرة أخرى..

عندما سمع الشاهد ما قلته توتّر بشدة ثم شكك في صحة ما تقوله الفتاة بقوله إن تلك الحارة الضيقة التي وقعت فيها الحادثة كانت مظلمة للغاية مما سيجعل من الصعب على الفتاة أن تُميِّز اللون جيدًا، في الحقيقة كان ذلك السبب ليس كافيًا لإعادة فتح القضية حيث إن سجلات الفتاة الطبية تقول إن حالتها ليست مستقرة ولا يمكن الأخذ بأقوالها بشكل نهائي، ولكن النيابة قد حصلت مصادفة على دليل من قضية أخرى حدثت في المكان نفسه.. دليل يتعارض أيضًا مع أقوال الشاهد ولذلك كان لزامًا أن نأخذ بشهادة وكيل النيابة الذي كان مسئولاً عن تلك القضية، ولكنني كنتُ مُصرًّا على قصف جبهته بشدة؛ لذلك أعدتُ سؤاله عن معلومة كان قد قالها من قبل.. معلومة ستكون سبب إسقاطه:

- هل يمكنك أن تخبرني عن الوقت الذي نزلت فيه الفتاة من السيارة الأجرة، وما كان لون تلك السيارة؟

- كان ذلك في الرابعة عصرًا، وكانت السيارة بنية اللون.

بعد أن أجابني عن السؤال استدعيتُ وكيل النيابة الذي اكتشف مصادفة الدليل الذي سيسقطه بلا شك.. بعد أن أقسم على قول الصدق ولا شيء غير الصدق طلبت منه أن يطلعنا على الدليل الذي اكتشفه والذي بسببه قدَّم طلبًا بإعادة فتح القضية مرة أخرى.

- منذ شهرين كنا نحقق في قضية صدم وهروب نتج عنها وفاة طفل صغير.

قالت أم الطفل والتي كانت تراقبه من شُرفة منزلها وهو يعبر الطريق إن السيارة الأجرة التي صدمته كان بنية اللون، أنت تعلم يا سيدي أنه لا توجد في البلد كلها إلا شركتان فقط تمتلكان جميع سيارات الأجرة وهي حكر لهما، وهما شركتا ((Rio و bom))، ومن المعروف أن جميع سيارات شركة (Rio) بنية اللون وجميع سيارات شركة (bom) صفراء اللون، ومن ثمَّ تم إيقاف جميع سيارات شركة (Rio) عن العمل حتى انتهاء التحقيق، ولكن التحقيق لم يستمر طويلاً حيث إن الشركة قد أثبتت عدم وجود أيٍّ من السيارات التابعة لها في الشارع في ذلك اليوم وقد استطاعت إثبات ذلك لأنها تضع بجميع سياراتها جهاز تتبع ولذلك تم نفي التهمة عن الشركة، وعندما تم فتح هذه القضية من جديد استخدمت ذلك الدليل.. حيث طلبت من الشركة نسخة من تسجيل تحركات جميع سياراتها لذلك اليوم وكانت النتيجة أنه في ذلك اليوم ومنذ سنتين لم تمر أي سيارة أجرة تابعة لشركة (Rio) في ذلك الشارع.. إذن كيف كانت السيارة الأجرة التي نزلت منها الضحية بنية اللون؟ أما المعلومة الأخرى الغريبة أن المتهم يعمل سباكًا وكان يحمل في يده حقيبة معدنية يضع بها عدته فكيف لم يستطع الشاهد أن يلحظها حيث إنه قال إنه لم يشاهد المتهم يحمل شيئًا وهو يتبع تلك الفتاة على الرغم من أن الحقيبة كبيرة الحجم.

يبدو أن كلام وكيل النيابة قد صدم شاهر لدرجة أنه نسي الكلام حيث ظل صامتًا مدة لا بأس بها، يبدو أنه كان يفكر فيما عليه أن يفعل، ويبدو أنه اكتشف أن جميع حِيله قد كُشفت ولن يستطيع الاستمرار في الكذب أكثر من ذلك.. بدأ في البكاء:

– لقد كانوا سيؤذون ابني ويفصلونني من وظيفتي، ومن ثم كان عليَّ أن أحمي حياتي.

في الحقيقة لم أتوقع أن يعترف بهذه السرعة فقد توقعت أن يحارب أكثر من ذلك، كنت أريدُ أن أعاتبه على ما فعل.. كنت أريد أن أسأله عن إحساسه بالذنب ناحية الشخص الذي سيسجن ظلمًا. ولكنني فضلتُ الصمت حيث كنت متفهمًا أنه قرَّر أن يختار أقل الخسائر.. ببساطة لقد قرر أن يبيع ضميره في مقابل الاحتفاظ بوظيفته وولده، أعلمُ أنه كان متأكدًا أنه لو رفض مساعدة الوزير فلن يكون من الصعب على ذلك الوزير أن يجد حلاً آخر ومن ثم سيفقد عمله وولده وسيقوم الوزير بما يريد في النهاية. أما بشهادته فقد أنقذ وظيفته ومنع الأذى عن ولده.

– من المؤسف أنك فكرت بتلك الطريقة.

***

مأسااااااااااة.. بعد تلك الجملة التي قالها القاضي وأشعل بها الإثارة في عقل الطبيب جاء انقطاع التيار الكهربي ليقتل تلك الإثارة بسهم الحيرة ليصبح عند الطبيب نزيف من الأسئلة:

(ماذا قال شاهر بعد ذلك؟ وماذا فعلتَ أنت بعد ذلك؟ وماذا؟ وماذا؟) كان الطبيب بالفعل يعلم الحُكم لأنها كانت مادة دسمة لدى الصحافة في الأيام التي تبعت الجلسة ومن الطبيعي أن يكون قد قرأ عنها كأي مواطن آخر ولكن لتفاصيل هي التي تهمه، فأي طبيب نفسي يعشق التفاصيل، ومن ثم فقد طلب من ماجد أن يحكي له بالتفصيل ما حصل بعد ذلك.. لكنه لاحظ أن ماجد لا يريد أن يتحدث عمّا حدث بعد ذلك فقد اكتفى بقوله:

(لا شيء.. لقد حكمتُ عليه بقطع اللسان).. أما ماجد كان يريد أن يتحدث عن مشاعره التي تفاجأ بها بعد المحاكمة، لقد كان يظن أنه لن يشعر بالذنب هذه المرة حيث إن المتهم يستحق العقوبة، ولكنه بعد ذلك بدأ يشعر بالضعف بعد أن عَلِمَ أنه بطريقة ما قد استطاع ابن الوزير مغادرة البلد قبل الجلسة بيومين.. كيف استطاع ذلك؟ أظنُ أننا جميعًا نمتلك الإجابة ولكننا سنخفيها في صدورنا ولن نذكرها حتى بيننا وبين أنفسنا.

- بماذا شعرت بعد أن نطقت بالحكم؟

– أظنُّ أنني ولأول مرة منذ فترة لم أشعر بهذا القدر الكبير من الرضى فقد أرضيتُ ضميري. أو هذا ما ظننتُ.. فعندما وضعتُ رأسي على الوسادة شاهدتُ كابوسًا لم يترك في ذهني إلا شعورا واحدًا وهو أنني أكثر الناس ظُلمًا على وجه الأرض.. أنا أشعرُ أن جهاز إطلاق المشاعر في جسدي قد أصيب بخللٍ ما.. لقد أصبحتْ مشاعري تتغير بشكل سريع وغريب وغير مُفسَّر.

– هل تريد أن تغير جلستك قبل أن تسرد لي الكابوس؟

– لا أريد.. أنا فقط أريدُ أن أحكي الكابوس.

***

كابوس (2)

أتدري أيها الطبيب.. لقد أصبح أكثر شيء أكرهه في العالم هو ذلك الشيء المستطيل الذي يُدعى الوسادة، فما ألبث أن أضع رأسي عليها حتى ترميني في غياهب كابوس مظلم لا يزيدني إلا خوفًا على ابنتي.. يبدو أنها تعلم أن سارة هي الحلقة الأضعف في حياتي.. لتعلم أيها الطبيب أن نصيحتك لي في المرة السابقة بأن أنام بجوار سارة كانت مُجدية فقد شعرت بطمأنينة كبيرة عليها بعد هذا القرار، ولكن يبدو أن الوسادة تريد أن تثبت لي أنها تستطيع أن تفرقنا حتى ولو كنا ننام على سرير واحد.. في هذه المرة يبدو أن الوسادة أرادت أن تلعب دور النيابة ذات الصلة حيث جعلت الكابوس في مقر عملي "المحكمة"، فحين أضع رأسي على الوسادة أجد نفسي قد انتقلتُ وسط محاكمة أقل ما توصف أنها هزلية... هأنذا أجلسُ في الخلف على مقاعد المشاهدين.. ماذا أفعل هنا؟ لماذا تجلس سما في مكاني على منصة القاضي العالمي؟ وما يزيدني حيرة أنها تتحدث. ألم يُقطع لسانها؟ ها هي تقوم بتوجيه اتهام بالكذب إلى شخص من المفترض أنه يقف

بمنصة المذنبين لكنني لا أستطيع مشاهدته.. إذًا لا بد أنه ليس واقفًا، لذلك قررتُ أن أقف لأشاهد مَن هو ذلك المتهم الذي سمحوا له بالجلوس، ولكنني صُعقتُ عندما وقفت فما شاهدته لم يكن منطقيًّا بالمرة.. إن المتهم لم يكن جالسًا بل هو قصير ولولا أنني أعرف المتهم حق المعرفة أو لنقل المتهمة لظننتها قزمًا ولكنها ليست كذلك.

إن المتهمة هي طفلتي سارة صاحبة الأربعة أعوام التي عندما شاهدتُها طار عقلي وجُنَّ جنوني ووقفتُ أصرخ في تلك القاضية.. لماذا تقف ابنتي على منصة المذنبين؟! فتجيبني بكل برود لقد كذبت ابنتُك.. بالطبع.. لم يكن هذا إلا ردًّا غبيًّا أثار حنقي أكثر لأجيبها.. كذبت؟! وماذا في ذلك؟! إنها طفلة صغيرة، ألا تعلمين أيتها الغبية أن قانون الكذب لا يُطبَّق على من هم دون الثامنة عشرة عامًا؟

كيف تطبقين قانونًا للبالغين على طفلة لم تتجاوز الأربعة أعوام؟ كيف تساوي طفلة صغيرة بشخص بالغ؟ فتفاجئني بسؤال مليء بالانتقام ..وكيف لك أن تساوي آمًّا تحاول إنقاذ طفلتها من الموت بشاهد زور؟ هل يتساوى في نظرك من يريد إنقاذ طفلته ومن يكتم الحق ليظلم الآخرين؟

تبًّا للحقِّ عندما لا ينظر إلى دواعي الكذبة.. تبًّا للحقِّ عندما لا ينظر إلى الجانب الإنساني..

لا أعرف لماذا بدأتُ في البكاء، ولكني بدأتُ أستجدي عطفها لترحم سارة أو على الأقل لتحكم عليَّ بدلاً منها لكنها لم تنظر إليَّ ونطقت بكلمتين: (كذبة ليست حمراء، رُفعت الجلسة).

بعد ذلك أبدأ في الصراخ ولكنهم يأتون ويأخذون سارة بعيدًا عن نظري ليتركوني أبكي بكاء لا ينقطع حتى توقظني إحدى الحركات الملائكية التي تقوم بها سارة وهي نائمة. بالطبع أشعر بالهدوء عندما أجدها بجواري، ولكن لا أطمئنُّ أكثر إلا عندما أوقظها لأسمع صوتها وأتأكد أنها تتحدث " تبًّا لتلك الوظيفة".

***

نسمة

عندما انتهى من قص الكابوس كان البكاء الهستيري دليلاً على خوفه الدائم والمتزايد على ابنته التي لا يريد أن يفقدها كما فَقَدَ زوجته التي كان يعشقها على حَدِّ تعبيره؛ لذلك قرّرتُ أن يكون محور نقاشي معه هذه المرة عن ابنته التي يُكِنُّ لها كل هذا الحب، وعن ماضيه الذي سيفيدني بالتأكيد. ولكن قبل ذلك أردته أن يجيب عن سؤال كان قد طُرِح عليه في أثناء كابوسه. وكنت أريد أن أسمع منه الإجابة، ومن ثم فقد أعدتُ على مسامعه آخر سؤال قد سألته له سما في أثناء الكابوس: (هل يتساوى في نظرك مَن يكذب لكي ينقذ ابنته ومَن يشهد زورًا؟)، وللأسف فقد كانت إجابته منطقية إلى حدٍّ كبير. فقد أخبرني ببساطة أن القانون ليس له علاقة بأي جانب إنساني، ولا ينظر إلى دواعي الكذبة وأسبابها. فهو فقط يهتمُّ بشيئين، هل الجريمة لها علاقة بالكذب أم لا؟ وإذا كانت لها علاقة به، فهل هذه الكذبة حمراء أم لا؟ وعلى هذا الأساس فهو مُجبر على الحكم من وجهة نظر القانون وليس من وجهة نظره التي قال إنها تتعارض كليًا مع

القانون.. بعد أن أجابني عن ذلك السؤال قررتُ أن أعود إلى ما كنت أريدُ أن أحدثه عنه من الأساس (سارة).. لقد لاحظتُ أن ابنته هي البطل الرئيسي في جميع كوابيسه، لذلك كان يجب أن أسأله عن طبيعة علاقته بابنته وعن سرِّ شعوره الدائم أنه سيفقدها.

- سارة هي أملي في هذه الحياة.. هي وقود الحياة.. الوقود الذي ستقف حياتي من دونه؛ لذلك لا يمكنني أن أحيا دونها؟ أنا متأكد أنه لو أصابها مكروهٌ فلن أستطيع أن أكمل حياتي، أما عن سبب عشقي لها فإذا أردت أن تعرف سبب ذلك فيجب عليَّ أن أحكي لك عن شخص آخر "نسمة".

- زوجتك؟

- لم أشعر يومًا أنها كذلك.. إنها عشيقتي التي كانت تذكرني بين الحين والآخر أنها زوجتي.

أخبرني بكل شيء عنها على الرغم من أن سؤالي كان عن ابنته.. كان يريد أن يتحدث عنها ولا أظنه كان سيقبل أن أوقفه، لذلك تركته على راحته.. أخبرني بكل التفصيلات.. أخبرني أنه وفي أحد الأيام وكعادته خرج في الصباح ليتخلص من نفايات منزله، ولكنه تفاجأ بوجود طفل رضيع ملقًى في صندوق القمامة، ومن ثم فقد توجَّه به على أقصى سرعة إلى أقرب مستشفى.. ما زلتُ أذكرُ وصفه للوضع تمامًا.. قال لي: (لقد كانت مأساة ولكنها كانت أفضل مأساة

حضرتما في حياتي فقد التقيتُ ملاكي هناك)، كان يقصد زوجته نسمة بالطبع..أخبرني أنها كانت تعمل ممرضة في قسم الأطفال بذلك المشفى.. (هناك حدثَ التلاقي.. هناك رأيتُ رِقّتها.. لمستُ براءتها.. طفلة تتعامل مع أطفال.. عندما شاهدتُها سحرتني بجَمالها.. خطفتني بهدوئها.. سيطرتْ علي بطيبتها، كان ذلك كفيلاً أن أتقدَّم منها وأتحدث إليها دون أن أخطط ماذا سأقول، ولأن رصيدي مع النساء هو صفر فقد قلتُ لها أغرب ما يمكن أن يقوله رجل لامرأة في أول لقاء بينهما على الإطلاق.. نظرتُ إليها ثم قلت لها: "أنا عاوز أتجوزك"، نظرتْ إليَّ بذهول وعلى عكس رد الفعل الذي ظننتها ستقوم به.. أجابتني: "واضح إنها أول مرة تكلم واحدة"، أظنُّها لم توبخني لأنها قد استشعرت الصدق في كلامي.. استكملت كلامها قائلة: "اعزمني على العشا وأنا هوافق ". أخبرني عن مدى سعادته عندما وافقت على طلبه ثم وصف لي المشاعر التي كانت تنتابه في كل مرة خرج فيها بصحبتها.. وصف لي كيف انبهر بشخصيتها الهادئة والمرحة في الوقت نفسه، أخبرني أن عشقه لها لم يسمح له أن ينتظر أكثر من شهر واحد حتى ارتبط بها رسميًّا في خطبة لم تستمر أكثر من ستة أشهر حتى انتهت بزواج سعيد.. (عشت معاها أحلى سنة ونص في حياتي.. من غير ولا دمعة.. من غير حتى ولا تكشيرة واحدة.. حتى لما نسبة بقت حامل، كانت حامل في هدوء)، لقد أراد أن يخبرني أنه كان زواجًا مثاليًّا.

- بعد أن أصبحت نسمة حاملاً جاءت والدتها لتعيش معنا في المنزل، وعلى عكس جميع أصدقائي الذين يصفون حمواتهم بالسوء فقد كانت والدة زوجتي ظريفة جدًّا وتعاملني معاملة حسنة للغاية، ولم يمضِ أسبوعٌ حتى أصبحت مقربة مني للغاية وتعاملني بكل أريحية.

- هذا جيد.

يبدو أن تعليقي الأخير - هذا جيد - قد أغضبه كثيرًا حيث صرخ في وجهي: (ليس جيدًا على الإطلاق)، ثم أخبرني بعد ذلك بالتفاصيل التي جعلتني ألتمس له العذر.. أخبرني أنه وبعد فترة قصية للغاية أصبحت والدة زوجته تتقرب منه بشكل مريب، في البداية ظن أنه مخطئ ولكن بعد ذلك حدث ما أثبت له ذلك فقد استغلت أن نسمة ليست في المنزل ثم دخلت غرفة نومه وتوددت إليه بصراحة، أخبرته بأنها تنتظر تلك اللحظة منذ مدة.. اللحظة التي تستطيع إخباره فيها أنها معجبة به، وأنها تتمنى أن يصبحا متقاربين، أخبرني بأنه تفاجأ مما حدث دفعها بعيدًا ثم غادر المنزل حتى عادت نسمة.

- بالطبع لم أخبرها بأي شيء ومن ثم فقد مَرَّ الأمر دون أي صخب بل تبعه هدوء غريب، كان يجب أن ألاحظ أن الوضع أصبح هادئًا أكثر من اللازم.. لقد أصبحت نسمة هادئة للغاية، كما أنها كانت تتجنب التعامل معي كثيرًا . كنت أستشعر في بعض الأوقات

أنها أصبحت خجولاً، ولكني لم أُلقي لذلك بالاً، كنت فقط أظنُّ أنها تغيرات طبيعية تمرُّ بها المرأة في أثناء الولادة وبعدها.

في تلك اللحظة بدأ بالبكاء.. أخبرني أنه في أحد الأيام كان عائدًا إلى المنزل في الليل وعندما دخل كان المشهد كالتالي: والدة نسمة ملقاة على الأرض دون أي حراكٍ، ولكنه لم يتوجه إليها بل اتجه مباشرة إلى غرفة النوم حيث صوت بكاء سارة.. سارة تبكي.. نسمة نائمة بجوارها وهي تمسك بورقة في يدها، ولكنها هي الأخرى لا تتحرك، لقد كانت تلك الورقة عبارة عن خطابٍ من نسمة.

حبيبي ماجد

أنا عرفت اللي ماما عملته معاك أو بمعنى أدق اللي حاولت تعمله معاك.. أنا مش عارفة بعد الموضوع ده انته بقيت بتفكر فيا إزاي، بس كل اللي عارفاه إني محرجة منك لدرجة إني مش قادرة أبص في وشك.. أنا بقيت خجلانة منك لدرجة إني مش هاقدر أعيش معاك تاني بس للأسف زى مانته عارف أنا مقدرش أعيش من غيرك.. أنا عارفة انك هتزعل مني عشان أخدت القرار ده لوحدي وعارفة كمان انك هتقول (إحنا متفقناش على كده).. بس صدقني كان لازم آخد القرار ده لوحدي.. خد بالك على سارة..

بحبك.. نسمة..

أظن أنني قد أخذتُ منه في هذه المرة أكثر مما كنتُ أطمح؛ لذلك قررتُ أن أتوقف عند هذا الحد خوفًا من الدخول إلى إحدى المناطق المظلمة التي قد لا يريد أن يظهرها لي في هذه المرحلة.

***

تقرير (2)

لقد كان مستعدًا لمناقشة تفاصيل وفاة زوجته، ولكنه لم يكن مستعدًا بالمرة للخوض في مشاعره تجاه ذلك، ولكن رغم هذا كله لم أستطع أن أستوضح .. هل تغيرت مشاعره ومعاملته مع الجنس الآخر بعد ما حدث أم لا؟

***

تقرير (2)

حالة المريض: أظن أن نصيحتي له في الجلسة الماضية أن ينام بجوار ابنته كانت مُجدية للغاية، حيث إنه قد أخبرني أن حالته قد تحسنت، وأن اطمئنانه على ابنته قد زاد، لكنه عندما قصَّ عليَّ الكابوس الثاني أدركتُ أن المشكلة لا تكمن في بُعده أو قربه من ابنته،ولكن في مدى خوفه من فِقدانها.

أعراض جديدة:

أولاً: اكتئاب..ناتج عن استمرار مهاجمة الصحف وبرامج الحوار له ولأحكامه على الرغم من أنه لم يخالف القانون،وقد رسَّخ ذلك في عقله بأن المجتمع مستعدٌّ لتقبُّل الكذب ما دام هناك مبرر لذلك.

ثانيًا: ضعف..ناتج عن معرفته بأن ابن الوزير قد سافر خارج البلاد قبل الجلسة مما قد يجعله يأخذ موقفًا سلبيًّا ضد هذا النوع من المتهمين في أي قضية أخرى.

(1)

ثالثًا: عدم الرضا.. ولا يشمل ذلك أحكامه فقط بل امتد إل
وظيفته ككل، يبدوا وأن ذلك الكابوس الذي هاجمه بع
القضية الأخيرة قد بدأ ينخر في العلاقة التي بينه وبي
وظيفته، أظنه بدأ يكره كونه قاضيًا عالميًّا.

رابعًا: الابتعاد عن الجنس الآخر.. أظن أن السبب في ذل
هو عدم الرضى عن قرار زوجته بالانتحار، ولولا أن
اعترف لي بالقول إنها قد ماتت لكنت ظننت أن
ما زال يؤمن أنها حية.

توصيات نهاية الجلسة:

1) بعد أن لاحظت عصبيته الزائدة والتي
تظهر جليًا في طريقة كلامه نصحته بأ
يخرج بصحبة ابنته حتى يستعيد الج
الأسري ويبتعد ولو قليلًا عن ضغط العمل.

أبي

على الرغم من إخباره لي دائمًا أنه أبي فإنني أظنه لا يقول الصدق، فهو يطلب مني أن أناديه ماجد.. فقط ماجد.. كما أنه لا يفرض عليّ تلك القرارات التعسفية التي يفرضها آباء أصدقائي عليهم، ما أقصده.. أنه لا يشبه تلك الكائنات الفضائية التي تصطحب أصدقائي كل يوم إلى الصف لذلك أشكُّ أنه والدي وإن صدق حدسي فسأكون منزعجة للغاية، ألم يخبرني من قبل أن الكذب شيء محرم، ولكن مهما تكن حقيقته فأنا لا أريده أن يتغير.. فكلمة بطل لا تعني عندي إلا كلمة واحدة "ماجد".. أنا سعيدة للغاية بعد نزهة اليوم فنحن لم نخرج منذ مدة طويلة.. وها نحن الآن نجلس في المكان نفسه الذي يصطحبني إليه دائما في نهاية كل نزهة.. بالطبع أنا لا أعرف السبب ولكنه مكان ظريف.

– ماذا أخذت اليوم في الصف؟

– شاهدنا بعض الرسوم المتحركة ثم حدثتنا المعلمة عن الكذب وأنه عادة سيئة للغاية، وفي النهاية لعبنا بالمكعبات.

- وماذا قالت لكم المعلمة عن الكذب أيضًا؟

- أخبرتنا المعلمة أنه لا يجب أن نكذب لأننا بذلك نفعل الصواب وليس لأننا نخاف من العقاب، ولكنني أخبرتها أنك قلت لي إننا لا يجب أن نكذب كيلا يعاقبنا الله.. أليس هذا صحيحًا؟

- نعم صحيح، سوف أذهب إلى المرحاض.. لا تُحدثي أي شخص غريب حتى أعود.

لقد طلب مني الطبيب أن أصطحب سارة في نزهة، أظن أنه يظنُّ أنني بذلك الفعل سوف أقترب أكثر منها ومن ثمَّ سيزداد اطمئناني عليها كما أنني أظنه يريد أن يمحو الحزن الذي أثاره في داخلي بعد أن طلب مني أن أحدثه عن وفاة نسمة، وإذا كان يظن ذلك فهو مخطئ في هذا؛ لأنني بالفعل قريب جدًّا من سارة.. قريب إلى أبعد الحدود حتى أنني أستشيرها في أموري الخاصة التي لم أكن أتشارك بها إلا مع نسمة.. أما عن الحزن الذي يظن أنه قد أثاره بداخلي فهو لم يهدأ من الأساس حتى يثيره.. نعم لم يهدأ. فأنا لم أعطِ نفسي الفرصة لذلك حيث إنني لم أمسَّ أيًّا من أغراضها بل تركتُها منتشرة في جميع أنحاء المنزل وكأنها ما تزال حية.. فتلك الملابس موضوعة داخل الخزانة بالترتيب نفسه الذي قامت به قبل الحادث، وذلك هو الكتاب الذي كانت تقرأ فيه كل ليلة قبل أن تخلد للنوم ها هو وقد تكوَّنت فوقه طبقة سميكة من الأتربة. حتى قميص النوم الذي شاركتني به الفراش

في الليلة التي سبقت الحادث ما زال مُعلَّقًا خلف باب الغرفة أبحث فيه عن رائحتها كلما شعرت بالحنين إليها.. كلما افتقدتُ همساتها.. كلما اشتقتُ إلى لمساتها، أما عن خارج المنزل فلم يختلف الوضع قط فأنا لا أذهب إلا للأماكن التي كنا نرتادها لنقضي أمسياتنا الرومانسية.. حتى هذا المكان الذي أنا فيه الآن بصحبة سارة هو نفس ذات المكان الذي دعوتها فيه لتناول العشاء لأول مرة وهو ذات المكان الذي أخبرتها فيه أنني أريد أن أكمل حياتي بصحبتها إلى الأبد (أنا بحبك.. وعاوز أتجوزك.. أنا بس بقولك مش باخد رأيك.. لأني ببساطة " مش هقدر أكمل من غيرك")، ولقد كان من المفترض وبعد خمس سنوات أنه عندما أخرج من دورة المياه أراها جالسة بجوار سارة تنتظرني برفقتها.. لكن المفترض في هذا الزمان خُلق لكيلا يحدث؛ لذلك عندما أخرج الآن سوف أشاهد طفلة صغيرة وجميلة وهادئة الملامح تشبه والدتها إلى حدٍّ كبير، سوف أجدها تنتظرني وحيدة على تلك المنضدة الخائنة التي لم تقبل أن نجتمع ثلاثتنا حولها ....ما هذا؟! هل خرجت كوابيسي من إطار سريري لتتحوَّل إلى أوهام واقعية تتجسد أمامي في الطبيعة؟ ما الذي أراه؟! إنني الآن أُشاهدُ سارة وهي جالسة على المنضدة بصحبة امرأة تُشبهُ نسمة إلى حدٍّ كبير ولكن.. ما هذا؟! هل فَقَدَتْ سارة هي الأخرى عقلها؟ هل قَبلَتْ أن تتحدث إلى الخيالات؟ أم أنها لم تستطع أن تفرق بين الأوهام والواقع؟ يا

الهي.. يبدو أنني أنا الذي لا يستطيع أن يفرق بين الحقيقة والخيال.

– سارة.. ألم أخبرك ألاَّ تتحدثي مع الغرباء؟

– أجل.. ولكنها ليست غريبة، إنها ندى.

– أنا ندى.. معلمة سارة في الصف، وجدتها جالسة وحيدة..

قالت إنها تنتظر ماجد.. هل أنت والدها؟

– لا لست والدها (ده ماجد).

– سارة.. ماذا قلتُ لك عن معاملة الكبار؟

– نتحدث معهم بطريقة مهذبة. (يعني نقول حضرتك وشكرًا)،

ماجد، هل صحيح أنك والدي؟

– ليس صحيحًا.. ماجد وسارة صديقان.

لأول مرة منذ مدة طويلة أجلس مع أحدهم أشعر بالسعادة.. هل لأنها تشبه نسمة أم أنني أريد أن أراها كذلك. لا أدري ولكن كل ما أعرفه الآن أنني لا أريد للوقت أن يمضي فأنا لا أريدها أن تفارقني.

****

ثالثًا

الفقر

على بعض البشر أن يدركوا أنه لا يمكنهم الارتقاء إلى ما هو أسمى من ذلك، لهذا لا يجب عليهم أن يخجلوا من الخطأ.. أما الفقر فيجب عليه أن يخجل من نفسه فهو يلقي بالبعض إلى ما هو أدنى من الإنسانية.

القضية الثالثة

ذنبه الفقر

الرهبة.. إنه الشعور الذي يجب أن ينتابك عندما تكون في هذا المكان، فنحن في إحدى البقاع المقدسة التي لا تقبل إلا الصدق.. وما يدعو للسخرية أن إله هذا المكان لم يعد يؤمن بذلك.. حتى أنني أظنه إذا سمعني وأنا أتحدث الآن سيزيد على جملتي (نحن في إحدى بقاع الصدق) بجملة (أو هذا ما ينبغي أن يكون). لا أظن أن سبب كفره بتلك الجملة هو فقده الثقة في ضمائر من يقفون أمامه فقط بل أظنه امتد ليشمل القانون الذي يحكم بمقتضاه، بمعنى أدق.. إنه لم يعد يؤمن بذلك الميزان الذي يعلو رأسه.

لقد أردتُ أن أعرف ما الأجواء التي تحيط به في أثناء حكمه.. ما الضغوطات التي قد تؤثر في قراره؟ لذلك قررتُ أن أحضر بنفسي إحدى قضاياه لأعرف بأي وجه يهاجم متهميه؟ وما المساحة التي

يعطيها لنفسه قبل الحكم؟ لقد أردت أن أعرف هل يخضع للقانون بكل سلبية فيكون إذعانه هو سبب تأنيب ضميره أم أن فشل محاولاته لإخضاع القانون إلى الجانب الإنساني هو سبب شعوره بذلك الضعف الشديد والذي يهاجم ضميره بكل شراسة

ها هو ذا بخطوات ثابتة وحركات هادئة يصعد منصة الحكم.. يقرأ ملاحظات النيابة المكتوبة في تلك المذكرة الموضوعة أمامه التي أعدُّها ثاني أوراق الضغط عليه التي تؤثّر بشكل مباشر في حكمه.. إنه كما رأيته أول مرة.. هادئ جدًّا لدرجة أنه لا يعطي أي اهتمام لهذا الجمهور الحاضر أمامه.. لقد ظننتُ أن ذلك الجمهور يمثل إحدى أوراق الضغط عليه، ولكنني كنتُ مخطئًا فهو حتى لا ينظر إليهم.. لقد توقعت أنه سيكون قاضيًا قويًا، وهذا ما وجدته بالفعل. فتجاهله الشديد لتلك الكاميرات يثبت ذلك على الرغم من أنه يعلم جيدًا أن الجلسة يتم تسجيلها ليضطلع عليها مستشار رئيس الدولة لشئون القضاء حتى يطلع الرئيس على أي تطورات.. في الحقيقة لقد كنت أتوقَّعُ أن تلك الكاميرات هي أولى أوراق الضغط عليه، ولكنني كنتُ مخطئًا أيضًا. ولذلك يمكنني أن أجزم الآن أن أولى أوراق الضغط عليه التي تؤثر بشكل كبير في حكمه هو "ضميره" .. ضميره الذي يؤنبه دائمًا.

لقد استمعتُ إلى أحد الحاضرين وهو يقول إن هذا القاضي مختلف، فهو – وعلى عكس باقي القضاة – يترك للمتهم مساحة كبيرة وفترة كافية كي يتحدث ويدافع عن نفسه ويوضح وجهة نظره ولا يسلم عقله بالكامل لمذكرة النيابة كما يفعل الأغلبية من القضاة، لقد أغلقَ المذكرة وخلع نظارته التي يستخدمها في أثناء القراءة.. طلب من المتهم أن يقسم على قول الصدق ولا شيء غير الصدق، أظنه سيبدأ حديثه الجاد الآن.

– هل تعلم يا سيد بيتر أن قضيتك لم تدخل لنيابة ذات الصلة في مسار طبيعي ولكنها "اتهام بالكذب" موجَّهٌ من زوجتك السيدة مارينا فوزي مجدي؟

الاتهام الموجه: هو خاصية يستطيع بها أي مواطن أن يتهم أي شخص بُجرم الكذب.. بشرط أن تكون الكذبة قد تسبَّبت في ضرر مباشر للمدعي، ويتم تقديم الاتهام في قسم الشكاوى التابع لنيابة ذات الصلة ويعتبر قسم الشكوى هو الجهة الوحيدة التي تتحكم بأحقية دخول الاتهام للنيابة ذات الصلة من عدمه.

لقد كانت قضية غريبة للغاية. لم أتوقع أن تكون هناك قضية على هذه الشاكلة، حيث إن زوجة هذا المتهم تتهمه بالكذب مما تسبب في وفاة ابنتهما. لقد استغربت عندما علمتُ أن النيابة ذات الصلة تدعم هذا الاتهام وتوصي بعقوبة الموت. ولكن المتهم وضَّح لماجد أنه ليس

مُتفاجأً من تلك التوصية فهو يقول إن والد زوجته شخص ذو نفوذ، كما أنه صديق مقرب لرئيس قسم الشكاوى بالنيابة ذات الصلة.. كان ذلك اتهامًا صريحًا من المتهم يصيب ماجد في ذمته؛ ولذلك كان من الطبيعي أن أجد ماجد قد تحوَّل إلى شخص أكثر جدية وعنف في حديثه.

– إن هذا الكلام خطير جدًّا وقد يعرضك للمُساءلة القانونية، ولكن ذلك لا يهمني الآن، ما يهمني هو أن أسمع ردَّك على ذلك الاتهام؟

– وهل تظنُّ أن موقفي هذا يجعلني أعبأ بما أقول؟ على كُلٍّ.. إن القصة بسيطة للغاية فقد كان من المقرر أن تُجري ابنتي جراحة قلب مفتوح، ولهذا.. حددت لي زوجتي اسم أحد الأطباء المشهورين لكي أتفق معه على أن يجري تلك الجراحة لابنتي ولكنه طلب مني مبلغًا خياليًّا، وعندما أخبرتُ زوجتي بعجزي عن دفع ذلك المبلغ لم تقدر ذلك، بل اتهمتني بالبخل وأنني أدَّخر المال لابنتي الأخرى حيث إن لي ابنة من زوجتي السابقة – قدَّس الرب روحها – ولكنها تعيش مع والديّ .. في الحقيقة لم أعرف ماذا أفعل إلى أن اقترح عليَّ أحد أصدقائي أن أبحث عن طبيب أستطيع تحمل نفقات عمله، وبالفعل وجدت ذلك الطبيب.. لقد طلب مني مبلغًا كبيرًا جدًّا ولكنه لم يكن خياليًّا كذلك الذي طلبه الطبيب الذي رشَّحته لي زوجتي ولأنني لم

أجد أن هناك فرقًا بين الطبيبين فضّلت عدم إخبارها بذلك التغيير البسيط من وجهة نظري؛ حيث إن ذلك الطبيب الآخر كان مشهورًا أيضًا، كما أنه كان ذو خبرة عالية لا تقلُّ عن تلك التي عند ذاك المشهور الجشع وبالتالي لم تعرف زوجتي أنني قد غيرت الطبيب إلا بعد الجراحة.

لقد زاد تعجبي من توصية النيابة بعد أن سمعت ما قاله المتهم لماجد، كيف لهم أن يوصوا بالحكم بالإعدام على شخص لمجرد أنه لم ينفذ رغبة زوجته المتسلطة، وبغض النظر عن رأي المتهم في توصية النيابة ذات الصلة وأنها تُجامل والد زوجته فإنه محقٌّ في اعتراضه على ذلك الحكم.. كيف لهم أن يتخيلوا أن أبًا يتعمد أن يقتل ابنته؟.. ثم.. أليست تلك التوصية ظالمة للغاية لابنته الأخرى؟ ألم يَفكروا في مصيرها من بعده؟

إن أرض الاستجداء هي أخطر الأسلحة التي قد يستخدمها المتهم ضد القاضي فهي تضرب مباشرة أسوار العاطفة لديه ولو نجح الاستجداء في أن يهز عاطفة القاضي فسيؤثر بالطبع في حكمه، ولأصارحُكم القول.. لم أكن أتمنّى أن يستخدم المتهم هذا السلاح فإذا كانت لماجد نقطة ضعف فهي بالتأكيد ستكون عاطفته الزائدة.

القاضي: تـــأجيل للتحقيق ..... رفعت الجلسة.

***

الزنزانة

زائر؟!

من يريد مقابلتي؟ والأهم من ذلك.. كيف يستطيع مقابلتي؟ إن الزيارة ممنوعة في الفترة ما بين جلسات الحكم.. إذن لا بد أنه والد زوجتي يستخدم سطوته مرة أخرى ليراني ويتشمت بي.. تبًّا لذلك القاضي.. لماذا أجل الحكم؟ لماذا لم يحكم عليَّ بالإعدام وينهي الأمر سريعًا؟ ألا يعلم أن انتظار الموت أصعب من الموت نفسه.. الموت؟!

إنني لا أريد أن أموت قبل أن أرى ابنتي.. يبدو أنه لا مفر من استجداء القاضي خلال الجلسة القادمة لكي يسمح لي برؤيتها فترات طويلة قبل تنفيذ الحكم، أظن أنه سيتعاطف معي في ذلك، لا أظنه من أتباع رئيس قسم الشكاوى، فهو لم يكن متحاملاً ضدي على الإطلاق بل على العكس ترك لي مساحة كافية لأظهر وجهة نظري وهذا ما لم أتوقعه..

أتوقعه؟! لم أتوقع أيضًا أن يأتيني اليوم زائر، ولو كان الأمر كما أتوقع وكان الزائر هو والد زوجتي جاء ليمثل أحد فصول مسرحيته "عهر النفوذ" والذي يتألق دائمًا في تمثيله سوف أقوم وأرفض إكمال الزيارة.. ها هو ذا السجان قد حضر ليأخذني لمكان الزيارة.

***

ما هذا؟! أليس هذا هو القاضي المسؤول عن قضيتي؟ ماذا الذي يفعله هنا؟! هل أخطأت يا ترى عندما ظننتُ أنه ليس من مجاملي والد زوجتي..هل أخطأت في الحكم عليه؟ لا..لا أظن ذلك..

– ماذا تريد؟

– أريد مساعدتك.. قد تظن أن هذا غريب ولكنني بالفعل أريد مساعدتك.. إن موقفك ضعيف جدًّا وقد ازداد ذلك الضعف بعد جلستك الماضية وهذا لسببين، الأول وهو أنك قد قلت أن الفارق في المستوى بين الطبيب الذي اختارته زوجتك والذي خترته أنت لم يكن كبيرًا، ولكن بعد الجلسة قدمت زوجتك مقارنة بين نتائج الجراحات التي أجراها كلا الطبيبين خلال هذا العام، وقد أظهرت هذه النتائج أن الفارق بينهما في المستوى كبير حيث تصل نسب نجاح الجراحات التي أجراها الطبيب الذي أرادته زوجتك إلى 78% بينما تصل نسب نجاح جراحات الطبيب الذي أجرى الجراحة الذي اخترته أنت إلى 35% وبالطبع هذه النتائج تظهر الفارق بينهما، أما

السبب الثاني أن زوجتك قدَّمت ما يفيد أنها كانت المرافق لابنتك خلال فترة ما قبل الجراحة، ومن ثم هي تدعي بأنها كانت ولي الأمر الأجدر باتخاذ أي قرار متعلق بالجراحة لأنها كانت الأقرب إلى الحالة على حد تعبيرها، ولكن رغم أن موقفك في هذه القضية صعب فإنه من السهل أن تنقذ نفسك.

- كيف؟

- لقد قلت لي في أثناء الجلسة الماضية أن زوجتك لم تكن تعرف أنك قد غيرت الطبيب إلا بعد الجراحة، وهنا تكمن الثغرة.. سوف تقول إنها لم تسألك عن ما إذا قمت بتغيير الطبيب أم لا؟ ولأنك تعرف أنها هي المرافقة لابنتك في المستشفى فظننت أنها كانت قد عرفت بالفعل.

- ولكن ذلك ليس صحيحًا، لقد سألتني زوجتي قبل الجراحة عن إعطائي آخر دفعة من المال للطبيب، وقد أخبرتها أنني قد فعلت ذلك كما أنني أضفت إلى ذلك أنه قد حدَّد موعد الجراحة... بالطبع كل ذلك كان كذبًا.

- ولكنه لا يوجد أي شخص شاهد على هذا الحوار الذي دار بينكما وهذا هو المطلوب، لو قلت ما أخبرتك به ستكون شهادتك أمام شهادتها ومن ثم سيكون ذلك كافيًا لرد الدعوى، وكما تعرف أن القاضي يمتلك الحق في رد الاتهامات الموجهة ...أنا أتفهم وضعك

جيدًا كما أنني مقتنع بدوافعك في الكذب ولكن القانون ليس له علاقة بدوافع الكذب، ويجب أن تتذكر دائمًا أن موقفك صعبٌ جدًا في هذه القضية.. أنا أعلم أنك تتساءل عن سبب مساعدتي لك.. في الحقيقة إنه أمر مُعقّد، ولكنني أستطيع أن أقول لك.. إنني مؤمن بأشياء وأحاول تطبيقها، ولكن للأسف القانون لا يساعدني على ذلك، ومن ثم فأنا أحاول أن أتخذ سُبلاً أخرى لأحقق ما أقتنع به.

– سيدي القاضي أنا أعتذر عما سأقوله، ولكنني أظن أنك جبان حيث إنك قد اكتشفت ضعفك أمام القانون ولم تختر أن تواجهه بل اخترت أن تتحايل عليه.

– لقد حاولتُ من قبل ولكنني فشلت.

– إذا فشلتَ في شيء ما فيجب عليك أن تحاول مرة ثانية وثالثة ورابعة فإذا فشلت في كل تلك المحاولات فما عليك إلا أن تنسحب ويكفيكَ شرف المحاولة. لذلك أنا أنصحك يا سيدي أن تُقدّم استقالتك ليس لأنك سيئ بل لأنك مختلف ولا أظن أن هناك من سيستطيع مساعدتك فيما تريد أن تحققه.

– أرجو أن تفكر جيدًا فيما قلته لك.

– صدقني يا سيدي.. أنت هو الشخص الوحيد الذي يجب عليه أن يفكر جيدًا.

لست

صِدقوني.. لم أتوانَ لحظة في التفكير عن ما قاله لي في أثناء الزيارة ولكن وبكل المقاييس لم أستطع أن أُبرِّر لنفسي تلك الكذبة التي أوحى إليَّ بها، لأنني إن فعلتُ ذلك سأكون قد هدمت أحد الأعمدة الأساسية التي قد تربيت عليها وهي الجرأة وعدم الكذب للهروب من تحمل المسئولية، كما أنني لو فعلت ذلك فسأكون قد طعنت تلك النصيحة التي أسديتُها له في مقتل، فكيف لي أن أتهمه بالجبن وأنصحه بالمواجهة ثم أهرب من مسئولية قراري وأكذب لأصبح بذلك أكثر جبنًا.. إن ما يهمني الآن أن يعمل هو بنصيحتي لأنه لو نجح في ذلك فسوف ينقذ الكثيرين مثلي وحتى لو فشل فستكون قد أنقذ نفسه من تطبيق ذلك القانون ذي النية الصالحة والسيف البطال.. أريدكم أن تعلموا أنني لا أمتلك أي شيء يقنعه بتنفيذ نصيحتي إلا برفض نصيحته، فأرجو منكم ألا تنظروا إليَّ بتلك العيون المليئة بالرجاء، فأنا لن أكذب لأهرب من مسئولية نتائج قراراتي. فأنا لستُ جبانًا.

لقد أخطأ حينما جعلني أُقْسِمُ على قول الصدق ولا شيء غيره.. كم تمنيتُ أن ينسى ذلك الطلب ولكنه للأسف لم يفعل، ولأنني أقسمتُ فقد كان من الطبيعي أن أخبره أنني ما زلتُ مُتمسكًا بجميع أقوالي التي قلتها في الجلسة السابقة.. بعد ذلك أعاد على مسامعي ما قاله لي قبل ذلك في الجلسة الخاصة التي دارت بيننا.

- لا بد أن محاميك الخاص قد أخبرك أن زوجتك قد قدَّمت بعد الجلسة الماضية ما يفيد بتباعد الكفاءة بين الطبيب الذي اخترته وبين الطبيب الذي اختارته هي، كما أنها قدمت شهادة من المستشفى تفيد بها كانت المرافق لابنتك لذلك كان لها الأفضلية في اختيار الطبيب.. ما ردك على ذلك؟

- لا أظن أن الأمر متعلق بنسبة النجاح حيث إن نسبة نجاح الجراحة عند كلا الطبيبين ليست 100%، فهي عند الطبيب الذي أوصت به زوجتي 78%، فما أدراني أن ابنتي لن تكون من ضمن نسبة الفشل لديه والتي تصل إلى 22% وما أدراها أن ابنتنا لن تكون ضمن نسبة نجاح الطبيب الذي اخترته أنا والتي تصل لـ35%؟ ما أريد أن أقوله إننا نتحدث عن نسب نجاح، أي أن الجراحة لم تكن مضمونة عند كلا الطبيبين.

في الحقيقة.. لم أتوقع أن يكون المحامي الذي ستعينه لي الدولة على مستوى عالٍ من الكفاءة، حيث إنه قدَّم تقريرًا عن حالتي الاجتماعية

يفيد أن المال الذي كان بحوزتي لم يكن كافيًا لتسديد ما طلبه الطبيب الذي أوصت به زوجتي. كما أنه قد حصل على شهادة ذلك الطبيب التي قال فيها إنه قد طلب مني مبلغًا معينًا من المال لم تكن حساباتي المصرفية قادرة على تغطيته بالفعل، ولكن ذلك للأسف لم يكن كافيًا حيث إن محامي زوجتي قد قدم ما يفيد أن والدها ثري، وأنه لم يكن سيرفض إقراض ابنته المال إذا ما طلبت منه ذلك....

ولعلكم تتساءلون.. كيف عَلِمَ محامي زوجتي أن المحامي الخاص بي سيقدم ما يفيد بأن المال الذي كان لديَّ في ذلك الوقت لم يكن كافيا لتغطية ما طلبه ذلك الطبيب الجشع؟ ببساطة، إنه عهر استغلال السلطة لوالد زوجتي الذي مكّنه من التجسس على جلساتي الخاصة مع المحامي مما جعلهم يقدمون مذكرة تكون مضادًا لمذكرتي والتي لم أكن قدمتُها بعد..

– هل هناك أمر آخر تريد إضافته؟

– أجل.. فأنا لم أكن أعلم أن المحكمة تأخذ بالنيات لذلك فأنا أظن أن ما يفيد أن والد زوجتي كان سيقرضني المال هو محض هراء لا تأخذ به المحكمة.. أليس كذلك؟

***

ألم أخبرك من قبل أنني قد حاولت كثيرًا.. حاولت لدرجة أنني قد بدأت أفقد الأمل بهذا الشأن. وهأنت ذا تثبت لي أنني قد فشلت مرة

أخرى في محاولاتي، فقد حاولت أن أبحث كثيرا عن حل أساعدك به دون أن أجعلك تتخلى عن مبادئك، وفي الوقت نفسه لا أظهر جبانًا أمامك؛ لذلك كنت أنا المجهول لذي أرسل لمحاميك الخاص تلك المذكرة التي تحتوي على كشف بحساباتك المصرفية والتي كانت أقل من أن تغطي تكاليف الجراحة، وأيضًا أرسلت له شهادة من الشئون الاجتماعية موثقًا بها الحالة الاجتماعية المتوسطة التي تعيش بها ابنتك الأخرى بصحبة والدتك مما يدل على أن اتهام زوجتك لك بادخار المال وإنفاقه على ابنتك الأخرى هو اتهام باطل، وأن حالتك المادية بالفعل لم تكن قادرة على الصمود مما أعطاك مبررًا لتغيير الطبيب دون أن تخبر زوجتك ولكن للأسف وكما قلت لك من قبل.. إن القانون لا يلقي بالاً لمبررات الكذب، كما أن تلك المذكرة والتي تمثل عهر استغلال السلطة بالنسبة لك كافية لكي تبطل مذكرتي، حيث إنهم قد أرفقوا بها بعض الفواتير الخاصة بحساب المستشفى والتي تم تسديدها بواسطة والد زوجتك مما يدل على حُسن نياته وصدق نيته في إقراض ابنته المال إذا ما كانت قد طلبت منه ذلك.

أنا أعتذر إليك، ولكن الأسلوب الذي أردته أنت لم يُؤت ثماره؛ لذلك فأرجو منك أن تكون قد قبلت نصيحتي فتجيبني عن السؤال القادم كما أخبرتك من قبل.. أرجو أن تفعل ذلك لأن ابنتك في أمسِّ الحاجة إليك لذلك فأنا أترجاك بأن تتخلى عن مبادئك.. أترجاك بأن ترتكب ذنبًا.. أترجاك أن تعود بشرًا.. فأنت لست ملاكًا.

- لديَّ سؤال أخير أريدك أن تجيبني عنه.. هل سألتك زوجتك ما إذا قد قمت بتغير الطبيب أم لا؟ ربما كانت إجابتك عنها في ذلك؟

أتعلمين أنه وبعد أن تخطيت فترة المراهقة ووصلت إلى سن النضج لم أكذب قط.. إنني وبعد أن أصبحت أتحمل مسئولية قراراتي لم أكذب قط.. إلا في هذه المرة والتي كان حصيلتها ضياع قرينتك؛ لذلك لن أكررها حتى لا تضيعي أنت الأخرى، حتى لو كان ثمن عدم كذبي هو ألا أراكِ مرة أخرى، فأنا لن أتحمل أن تضيعي أنت الأخرى بذنب قرينتك نفسه.. أعتذر منك، فأنا لن أضحي بك من أجل كذبة أخرى.. فأنا لستُ مغامرًا.

- نعم.. لقد سألتني ذلك السؤال قبل الجراحة بسبعة أيام وقد أجبتُها أنني لم أفعل ذلك، بل زدتُ بأنني قد دفعتُ المبلغ الذي طلبه الطبيب.

(يبدو أنك قد استطعت أن تهزمني في النهاية).

- كذبة حمراء .... رُفعت الجلسة.

الجلسة الثالثة

(ليس عدلاً)

لم أتوقع أن يكون هناك من يظن نفسه ملاكًا ويرفض إنقاذ نفسه مقابل ذنب بسيط.. هل كان غبيًّا؟ أم أحمق؟ أم كان مثاليًّا؟

لو كان مثالياً لما كذب من البداية، كما أنني لا أظنه يريد معاقبة نفسه فذلك تصرُّف لا يتناسب وتلك الشخصية الحكيمة التي أعطتني نصائح المواجهة وعدم الهروب ..تبًّا لتلك الأنواع الغريبة من البشر التي تريد أن تسمو لدرجة الملائكية.. تبًّا لهم.. هل يظنون أنهم يمتلكون أجنحة سيصلون بها إلى المثالية؟ إنهم لا يعلمون أن شمس سماء البشر تحرق دائمًا ذلك النوع من الأجنحة الوهمية لتهوي بأصحابها إلى الواقعية المؤسفة والتي تذكرهم في النهاية بأنهم محض بشر. لقد كانت حالتي النفسية سيئة للغاية؛ ولذلك قررت أن أزور الطبيب قبل موعد جلستنا المعتادة بيومين، قال لي إنه عندما تصبح حالتي النفسية

سيئة جدًا بعد حكمي على أحدهم بمصير سيئ فهذا شعور صِحِّي يدل على أن ضميري ما زال مستيقظًا.. تبًا لذلك، كيف لي أن أعتبر شعوري صِحيًا بعد أن أعدمتُ شخصًا حاول إنقاذ ابنته.

عندما يصل الأمر أن تكون حياتك هي الثمن فمن الطبيعي أن تكون مستعدًا لأن تفعل أي شيء مقابل الحفاظ على حياتك حتى لو كان هذا الشيء هو أن تكذب خصوصًا أنها كذبة ليست مؤذية نهائيًا، ولأجل ذلك فقد وجدتُ أن ذلك الشخص أناني إلى أبعد الحدود فعندما أخذ هذا القرار لم يكن يفكر إلا في نفسه.. لم يفكر في ابنته ولو لحظة واحدة.. أنا لم أتخيل أن هناك أحد في هذا الكون سيفضل المبادئ على أحد أولاده.. لقد كان ذلك الجزء من الحوار بيني وبين الطبيب حادًا للغاية فقد أثار غضبي حين برَّر أفعال بيتر قائلاً:

– هناك أنواع من البشر تُمثِّل المبادئ لديهم جزء من أرواحهم، فإذا تخلوا عن هذا الجزء يكونون قد تخلوا عن جزء مهم من أرواحهم.

– أليست ابنته هي الأخرى جزء من روحه؟!

– بلى.. ولكن هذا النوع من البشر يؤمن أن المبادئ هي جزء من الروح لا يمكن هدمه أو الاستغناء عنه، فهي إذا هُدمت لا يمكن بناؤها مرة أخرى ومن ثم لا يستطيعون مقارنة مبادئهم بأي شيء آخر حتى لو كان أبناءهم، فهم يعتقدون أن مبادئهم هي القوانين التي تنظم

حياتهم.. حياتهم التي يكون أبناؤهم جزءًا منها ومن ثم يضعون مبادئهم في مرتبة أعلى من كل شيء حتى أولادهم.

– هل تظن أن بيتر من هذا النوع؟

– أنت من يستطيع أن يحدد ذلك، فأنت مَن تحدث معه.

– لستُ أدري.. هل تظن أنه يحاول أن يثبت شيئًا ما لنفسه؟

– بالتأكيد.. فنحن نفعل أي شيء إما لنصل إلى هدف معين أو لنثبت شيئًا ما، في ظني أن بيتر أصبح يخاف من الكذب إلى أبعد الحدود خصوصًا أن عواقب المرة التي كذب فيها كانت وخيمة للغاية لدرجة أنه فضَّل الموت هذه المرة على الكذب. كما أنني أظنه يريد أن يثبت أن المجتمع قد ظلمه عندما وضعه وسط هذه الطبقة المتوسطة مما أظهر عجزه المادي، ومن ثم فهو يرفض أن يكمل وسط هذه الطبقة حتى لو كان السبيل لذلك هو الموت.

***

كابوس (3)

يبدو أنه قد تفاجأ بتصرفات لم يكن يتوقعها من أناس ظنَّ أنهم تعرضوا لظلم شديد حيث إنه قد شعر بالإحباط الشديد عندما استسلم بيتر وقرَّر أن يتخلى عن حياته.. أظن أن الكُره قد بدأ يتولد لديه ضد قانون قد أصبح مؤمنًا أنه ظالم، وما أتمناه ألاَّ يمتد ذلك الكُره ليشمل مهنته الشريفة بالطبع، لقد أخذ الجزء الأول من جلستي معه طابعًا حادًّا أظهر فيه اعتراضه العنيف على تصرف بيتر حيث اتهمه بالغباء والأنانية، لقد حاولت أن أبرر له ما فعله بيتر، ولكنه لم يتقبل ما قدمته له من مبررات، كان الإرهاق ظاهرًا على وجهه وعندما سألته أخبرني أنه كابوس آخر يمنعه وبشدة من النوم.. لقد أخبرني أن كابوس هذه المرة مختلف عن أي مرة أخرى. حيث إنه - وعلى حد تعبيره - لا يستطيع الخروج من الكابوس. وعندما طلبت منه أن يوضح أكثر أخبرني أنه عند خطة معينة من الكابوس يكتشف أنه يحلم، ومن ثم يحاول أن يستيقظ ولكنه يجد نفسه محبوسا ولا يستطيع الاستيقاظ حتى أنه وعلى حد تعبيره يصير متأكدا من أنه

سيظل على هذه الحالة إلى الأبد، وعندما طلبت منه أن يسرد لي الكابوس طلب مني أن يستلقي على الأريكة.

أريكة مريحة كسريري تمامًا.. لابد أنها ستمنحني قدرًا كبيرًا من الراحة والهدوء اللذين سيمنحاني كابوسًا مثاليًّا يلقي بروحي في أشد آبار الظلمة أذًى للنفس.. بالتأكيد هذا ما كان سيحدث إذا ما خلدتُ إلى النوم، ولكنني لن أنام الآن بل سوف أتكئ عليها فقط حتى تمنحني قدرًا مناسبًا من صفاء الذهن لكي أستطيع أن أُخرِجَ كل تفاصيل الكابوس لأشاركك إياه؛ لذلك انتبه اللي بكل حواسك حتى تمنحني ما أبتغيه منك والذي بدأت أشعر أنك لن تمنحني إياه أبدًا، ففي الحقيقة وأنا أعتذر لقولي ذلك.. أنت حتى هذه اللحظة لم تُفِدني على الإطلاق، كما أنك لم تساعدني على أي شيء.. كل ما هنالك أنني قد وجدتُ شخصًا أشاركه أحلامي السيئة وتفاصيل مهنتي الشريفة ذات السمعة الطيبة والفعل القبيح.

عندما تداعب رأسي الوسادة.. ما ألبث أن أجد نفسي في وسط المدينة التي لا يميزها أي شيء سوى الازدحام.. ازدحام تريد أن تعد أصابعك بعد أن تتخلص منه، هأنذا في تلك المنطقة المزدحمة جدًّا والتي لا أتذكر اسمها.. لا أتذكر إلا أن سارة كانت بجواري ولكنني أتفاجأ بأنها لم تعد كذلك؛ ولهذا أنادي عليها وأصرخ بأعلى صوتي ولكنها لا تجيب.. ما هذا؟! إنها ليست في تلك الناحية.. أو تلك.. أو تلك

سااارااااااة.. سااااراااة .. ساااارااااة.. هذا صوتي وأنا أعيد النداء، ولكن ليس هناك أي إجابة، كما أن ذلك الازدحام المقزز يمنعني من الرؤية بوضوح لذلك لم أكن أعرف ماذا أفعل، ولكنني في النهاية قررتُ أن أطلب المساعدة من إحدى سيارات الشرطة التي كانت تقف في ذلك الشارع.

ها هو ذا ضابط الشرطة يخرج من ذلك المبنى الذي أجده مألوفًا، ولكنني لا أستطيع أن أتعرف إليه في هذه اللحظة.. بالطبع لم أجد وقتًا لمحاولة التعرف إلى المبنى، حيث إن كل تفكيري كان مُنصبًّا على سارة، ومن ثمَّ أسرعت في خطواتي حتى وقفت أمام ضابط الشرطة.. سيدي.. إنني وبسبب ذلك الازدحام قد افترقتُ عن ابنتي وهي تائهة عني في هذه اللحظة ولا أستطيع إيجادها، فهل يمكنك مساعدتي على البحث عنها؟ ها هي صورتها لكي يكون من السهل عليك أن تتعرف إليها.. سيدي.. سيدي... ما هذا؟!

لقد تركني واتجه إلى سيارته دون أن يرد عليَّ؛ لذلك قمتُ بملاحقته وأنا أناديه بصوت مرتفع ظنًّا مني أن تلك الضوضاء التي يصدرها الازدحام قد شتت صوتي ومن ثم لم يسمعني، ولكنه مع الأسف لم يسمعني هذه المرة أيضًا.. في تلك اللحظة تذكرتُ ذلك الحلم القديم الذي كان يحتوي على ذلك الجزء المتعلق بقطع اللسان. ولكنني في هذه المرة كنت مستعدًّا؛ فقد أخرجتُ من جيب سترتي

ورقة وقلمًا وكتبتُ له ما أريد ثم مددت له يدي وبها الورقة.. هنا كانت الفاجعة التي لم تتمثل فقط في كونه تركني ممدود اليد ثم رحل بل امتدت إلى ما هو أبعد من ذلك.. امتدت إلى ما تستطيعون أن تسموه أحد دروب الخيال، فعندما تركني وذهب ليركب سيارته كان من الطبيعي أن يفتح باب السيارة ثم يدخل إليها ويغلق الباب، ولكنه عندما فعل ذلك.. حدث ما لا يمكنني تخيُّله.. لقد مَرَّ الباب ذهابًا وإيابا من خلالي.. لقد اخترق الباب جسدي وكأنني كائن شبحي. نعم.. إنه السر خلف عدم تبادُل الضابط الحديث معي، فهو لم يكن يسمعني أو حتى يراني.. لقد كنت عبارة عن سراب أي أنني لم أكن موجودًا في هذا العالم.. تلك كانت الحقيقة.. حقيقة كانت كفيلة بتحطيم روحي بل ودفن فتاتها في تراب أرض ما دون الواقع.. لكم أن تتخيلوا ما أشعر به في تلك اللحظة.. لحظة هي الأفضل لتمنح أي شخص شعور "الانهيار الكامل".. بالطبع هذا هو الشعور الذي كان يجب أن يغزو عزيمتي بعد ما اكتشفت الأمر، ولكن ما شاهدته بعد ذلك كان داعمًا لي لكي أكون أكثر قدرة على الاستمرارية، فتلك سارة تجلس في المقعد الخلفي لسيارة الشرطة،وعندما انطلقت السيارة لم يكن في يدي إلا أن أتبعها، وهنا كانت الصدمة الأخرى.. لقد توقفت السيارة أمام إحدى دور الأيتام ليخرج ضابط الشرطة من السيارة ويصطحب سارة إلى داخل الدار.

عندما تبعتهما إلى الداخل وجدته يسلم سارة لإحدى المشرفات التابعة لتلك الدار ويحدثها بأنها فتاة مسكينة قام والدها بالانتحار وليس لديها أقارب ليعتنوا بها، في هذه اللحظة بدأت سارة تبكي بشدة مما أثار جنوني خاصة أنني قد أدركتُ أنني داخل حلم قبيح منذ أن اخترق باب السيارة جسدي..حلم كنت مُجبرًا على متابعة أحداثه المؤذية لمشاعري.. حلم أريد أن أغادره ولكنني ببساطة لا أستطيع.. لا أستطيع الاستيقاظ.. إنني محبوس داخل كابوس مريع يؤذيني أكثر من أي شيء آخر..كابوس يمزق أحشائي.. يأسر عقلي..

يحطم روحي، بعد ذلك أظل هائمًا على وجهي داخل تلك المدينة باحثًا عن مخرج، ولكنني للأسف أفشل مرة تلو الأخرى، فأنا كالذي يبحث عن طريق لا يعرف شكلها أو يحاول فتح باب لا يمتلك مفتاحه، وفي اللحظة التي أبدأ فيها بالإيمان بأنني سأظل محبوسًا ولن أستطيع الخروج تنقذني سارة بإحدى حركاتها الملائكية أو إحدى صفعاتها الطائشة التي دائمًا ما تصيب وجهي بدقة وكأنها متعمدة.. فأستيقظُ ولا أعودُ للنوم مرة أخرى حيث أشعر بالخوف على سارة وأظل أراقبها وهي نائمة.

– الجميع يشعرون بالخوف على أبنائهم، ولكنك الوحيد الذي يرى الكوابيس.. ما سبب ذلك في رأيك؟

– لا أدري.. لهذا آتي إليك.

- اهدأ يا سيد ماجد.. سوف أسألك السؤال بطريقة أخرى، في رأيك.. لماذا أرسلوا ابنتك في الكابوس إلى دار أيتام بعد وفاتك؟

- لأنه لا يوجد مَن يرعاها بعد وفاتي.

- هذا صحيح.

- ماذا تريد أن تقول؟

- ما أريد أن أقوله.. إنه يجب أن يكون هناك شخص آخر تأتمنه على سارة إذا حدث لك مكروه - لا قدر الله - أنت تحتاج إلى من يشاركك مسئولية سارة.

- وهل تظن أن هذا هو الحل؟

- أنا أرى أن هذا هو أفضل حل لتلك المشكلة، ولكن يجب أن تفكر جيدًا فقرار مثل هذا يجب أن تقرره بنفسك بعد أن تكون قد فكرتَ مليًا.

***

تقرير (3)

الخوف.. أحد المشاعر الأساسية التي يمتلكها البشر، ولكن عندما يزداد ذلك الشعور ليتضمن ما هو أكثر من المعتاد فإننا نتخطى تلك المنطقة إلا ما هو أسوأ وأنا أقصد بذلك "الجبن".

الجبن.. هو الخوف من أي شيء بشكل مبالغ فيه، وفي رأيي أننا لا نجد هذا المرض إلا عند الأشخاص الضعفاء الذين كنت أتمنى أن يكون ماجد أحدهم، ولكنه للأسف ليس كذلك، وهنا تكمن المشكلة فعندما يعترف الأقوياء بالخوف يجب أن يدق ناقوس الخطر، فالخوف ليس زائرًا مُرحَّبًا به بين مشاعر الأقوياء، بل هو دخيل يجب قتله قبل أن يغزو قلوبهم ويفتك بها، وللأسف فهو غالبًا ما ينجح في مهمته ويرجع سبب ذلك أن أغلب الأقوياء لا يعترفون بأن الخوف قد غزا مشاعرهم وهو ما يتطلب قدرًا كافيًا من الحكمة، ومن ينتقل الخوف بدوره إلى قلوبهم فيحطمها، أما من يمتلكون ذلك القدر من الحكمة يدركون أن الاعتراف بزيارة الخوف لمشاعرهم هي الخطوة الأولى

لطرده ومنعه من الوصول لقلوبهم.. ببساطة.. إن الفئة الوحيدة من الأقوياء التي تنجو من ذلك المرض هم "الحكماء".

***

لقد حضر هذه المرة وهو يصطحب معه الخوف، وللأسف لم يكن ذلك قدرًا قليلاً بل الكثير والكثير.. خوف على مستقبل ابنته ..

خوف من قراراته.

خوف من النوم.

ببساطة.. خوف يهدد استمرارية حياته

***

تقرير(3)

أعراض مستمرة: كابوس ثالث يزيد مشاعر خوفه على ابنته.

أعراض جديدة :

1) عصبية ظاهرة في طريقة حديثه.

2) فقدان في التركيز.. ظهر جليًّا عندما طلب أن ينام على الأريكة مما يدل على أنه يحتاج إلى تركيز أكثر من السابق حتى يتذكر تفاصيل الكابوس .

توصيات نهاية الجلسة:

1) عدم شعوره بالرضا عن حكمه في القضية الأخيرة ولّد لديه مشاعر لا بأس بها من الكُره ضد مهنته؛ لذلك طلبتُ منه أن يأخذ إجازة من العمل حتى تختفي تلك المشاعر .

2) شعوره بالخوف من النوم والذي اعترف لي به، قد يدفعه إلى تقليل ساعات نومه مما قد يزيد حالة فقدان التركيز التي لديه والتي بالتأكيد ستؤثر بالسلب في قراراته؛ لذلك نصحته بأن يتناول مهدئًا قبل أن ينام مباشرة حتى يحصل على عدد كافٍ من ساعات النوم .

3) خوفه الشديد على مستقبل ابنته في حالة حدوث مكروه له أصبح منبعًا خصبًا يغذي اللاوعي لديه مما يشكل له كل تلك الكوابيس المؤذية لذلك نصحته بالارتباط حتى يُكوِّن أسرة تكون مصدرًا يطمئن من خلاله على مستقبل ابنته.

لقاء

يبدو أنها إحدى الليالي التي قررت فيها السماء أن تلعب دور الفنان لترسم بريشتها على صفحات الأرض وأسطح العمارات. ولأنها بالطبع لن تنسى زجاج السيارات فقد كان من المنطقي أن أدير ماسحات الزجاج حتى أتمكن من رؤية الطريق.. يبدو أن فعلتي هذه قد أغضبت السماء.. يبدو أنها ظنت أنني أريد أن أخرب ما ترسم من لوحات على زجاج سيارتي؛ ومن ثم زادت من شدة مطرها ولكني مطمئن على رؤية الطريق ما دمتُ مستمرًّا في إزالة ما ترسمه على زجاجي.

لقد كانت جلستي اليوم مع الطبيب ذات نهاية مختلفة فقد نصحني بالارتباط وهو قرار يصعب عليَّ أن أتخذه بسهولة فهو سيغير شكل حياتي بالكامل. كما أنها مخاطرة كبيرة فكيف لي أن أضمن أنني لن أضيف بذلك شخصًا آخر إلى موسوعة الأشخاص النادرين الذين أهتمُّ بهم ومن ثم أتلقى زائرًا جديدًا في كوابيسي وتزداد مرارة الخوف إلى الضعف.. فبدلاً من أن تكون من سأرتبط بها هي حل مشكلة

خوفي على سارة إذا ما أصابني مكروه ستصبح هي نفسها نسخة مستحدثة من سارة.. يا إلهي! يبدو أنه أمر جلل يصعب البت فيه.

يبدو أن السماء أرادت أن تتحدى ماسحات الزجاج لذلك قامت باستبدال تلك القطرات الرقيقة بأمطار غزيرة صعَّبت بها مهمة الماسحات فحجبت عني الرؤية تمامًا؛ لذلك سيكون من الأفضل أن أتوقف عند ذلك الكافيه وانتظر حتى يهدأ المطر.. يبدو أن الطقس السيئ قد أرغم الكثير من السائقين على أن يتوقفوا عند هذا المكان حتى يتحسن الجو ويتمكنوا من القيادة بسلام، يا لها من وجوه عابسة أُرغمت على التأخر عن مواعيدها بسبب حالة الطقس! ولأن الساعة قد اقتربت من العاشرة ليلاً سيكون من الطبيعي أن يكون جميع الجالسين من الرجال.. لحظة.. أظن أن تلك الزاوية البعيدة تحمل خيالاً أنثويًّا.. يا إلهي! يبدو أنني بدأتُ أشاهد الخيالات مرة أخرى فأنا الآن أشاهد خيالاً أنثويًّا أعرفه جيدًا.. إنها نسمة!

هل بدأت أفقد عقلي تدريجيًّا؟ لا.. إنني لا أهذي فها هو النادل يتحدث إلى ذلك الخيال.. أنا لا أتوهم. إذن فمن تلك المرأة التي تشبه نسمة إلى هذا الحد؟! من تلك المرأة التي تمتلك الحالة نفسها التي لم تكن تميز إلا نسمة؟! سأقترب قليلاً فقط لأشبع فضولي...ما هذا؟! إنها تُلوِّح لي.. من هي يا ترى؟

نعم لقد تذكرتُها.. إنها تلك المُدرِّسة التي تدرس لسارة في الصف.. إنها المرة الثانية التي أراها فيها وهي أيضًا المرة الثانية التي ألاحظ فيها تشابهًا كبيرًا بينها وبين نسمة ..يا إلهي! لقد شاهدتني.. أظن أنه يجب عليَّ أن ألقي عليها التحية.. إنها مشكلة.. فأنا لا أتذكَّر اسمها..

بعد أن ألقيتُ عليها التحية أصرَّت عليَّ أن أشاركها الطاولة؛ ولأن المكان مكتظٌّ بالناس فلم أجد مانعًا من ذلك، فعلى أي حال أنا أفضل أن يكون شريكي في الجلسة شخص أعرفه، كانت لطيفة للغاية كما أن حديثي معها كان شائقًا للغاية فقد كانت سارة هي محور هذا الحديث.. أخبرتني أنها لم تشاهد طفلاً متعلقًا بوالده كتعلُّق سارة بي، فعلى حدِّ وصفها أن سارة لا تتحدث إلا عني.

– أنا أيضًا متعلق بها بشدة، بل إنني الآن أحيا فقط من أجلها.

– لا أتفق معك فيما تقوله.. أنت بالطبع يجب أن تهتم بها وتربيها جيدًا وهذا هو واجبك اتجاهها ولكن.. أين واجبك اتجاه نفسك؟ يجب أن تهتم بنفسك وألا تنساها. يجب أيضًا أن تستمتع بحياتك.. نحن نعيش من أجل أن نستمتع بحياتنا ونحياها بالشكل الذي نريده.. ببساطة.. نحن نعيش حياتنا مرة واحدة ومن أجل ذلك يجب أن نستغل كل دقيقة منها كما ينبغي.. سوف أعطيك نصيحة.. ابحث عن المتعة في أي عمل تقوم به. فإن لم تجدها فتوقف عن هذا العمل في

الحال.

– أظن أن المشكلة هو أنني فقدتُ الأمل في التغيير.

– الأمل دائمًا موجود، وإذا أردتَ أن تتأكد من ذلك فما رأيك أن تأتي بصحبة سارة إلى الصف وتقضي معها اليوم بكامله حتى ترى الأمل في عيون الأطفال.

في تلك اللحظة أوقفنا صوت هاتف ندى الجوال، كانت مكالمة من والدتها، فقد كانت تطمئنُّ عليها لأنها قد تأخرت في العودة إلى المنزل..

– هل تعيشين مع والدتك؟

– نعم، لماذا أنت مندهش؟

– ظننتك متزوجة.

– آآآآه.. إذا كنت تقصد هذا الخاتم فأنا أضعه لكي يظن الناس أنني كذلك فالمضايقات التي تتعرض لها المرأة المتزوجة تكون أقل من المضايقات التي تتعرض لها أي امرأة أخرى سواء كانت عازبة أم مطلقة أم حتى أرملة.

كان الحديث شائقًا لدرجة أنني لم أكن أريده أن يتوقف.. في الحقيقة لم أكن أعرف سببا لذلك. ولكن هذا ما كنت أريده إلا أن ندى كانت مضطرة إلى أن ترحل لأن الوقت قد أصبح متأخرًا ولأنني

اعتدتُ أن أتصرف دائمًا (كجنتل مان) فكان من الطبيعي أن أصمم على إيصالها إلى المنزل.

- موافقة ولكن بشرط أن تعدني بأن تلبي دعوتي وتأتي بصحبة سارة إلى الصف.

- أعدُك بأن أحاول.

- سأعتبر أن هذا وعد.. ستجد رقم هاتفي مُدوَّنًا على حقيبة سارة.. إذا قررتَ أنت أنتَ فأرجو منك أن تخبرني قبل ذلك بيوم أو اثنين.

- سوف أفعل.. هيا بنا.

***

رابعًا

التغيير

دائمًا ما يخبروننا عن التغيير ولكنهم نسوا أن يخبرونا.. كيف السبيل إليه؟ لذلك.. لا يحق لهم أن يلوموننا على عدم قدرتنا على تحقيقه.

القضية الرابعة

"مَن المتكلم"

إنني هنا منذ قرون.. منذ أن بدأت تلك العملية، وإن كنتم تجهلون عن أي عملية أتحدث فأنا أقصد.. الاحتكام نعم.. فأنا هنا منذ قديم الزمان..

قديم لدرجة أنهم قد نسوا وجودي.. أنا لا أقصد بذلك كلا المحتكمين، فعلى العكس كلاهما يتذكرني جيدًا فأولهما يتمنى وجودي ويرجو سلطتي وسطوتي.. بالتأكيد أنتم تعلمون أنني اتحدث عن صاحب الحق أي المظلوم، أما الآخر فهو دائمًا ما يتمنى ضعفي وعدم نفوذ أوامري وهذا للأسف ما اعتاده منذ فترة طويلة. وبالطبع أنتم تدركون أنني أقصد ذلك المدعي الظالم الذي من شدة تبجحه قبل أن يدخل في مواجهة مع المظلوم متناسيًا أن الحق مع خصمه وليس معه.

كل ما ذكرته سابقًا يمكنني تقبُّله لأنه وعلى الأقل هذا هو ما اعتدته أن يحدث منذ قديم الأزل، فكلنا يعلم يقينًا أن أحد المحتكمين

كاذب وظالم ومع ذلك يقبل بافترائه أن يدخل في مخاصمة مع صاحب الحق، أما ما لا يمكنني قبوله هو أن تقبل ألسنتي بالخرس.. أن تخضع أذرعي للشلل..

أن تفقد أدواتي عزيمتها..

أن تستسلم أسلحتي للوهن، ومن ثم يفقد العدل السيطرة لتنتقل بدورها إلى أيدي بعض حيوانات البشر الذين لا يتلذذون إلا ببطش الضعفاء حتى ولو كان الحق في صفهم وبالتأكيد كل ذلك يكون في سبيل ذوي السلطة حتى ولو كان الحق بعيدًا - عنهم آلاف السنين الضوئية.

لا تستغربوا من معرفتي بتلك الأمور، فقد قلت لكم.. أنا هنا منذ سنين.. تحديدًا.. منذ نشأة هذا المكان.. كل همي أن أتابع كل القضايا عن قرب وأتحقق من كل تفصيلاتها.. ابتسامة الظالم الخبيثة بعد هروبه من العقاب.. صرخات أولائك المظلومين بعد خسارتهم ثم دعواتهم للربِّ الذي أصبح بالطبع ملجأهم الأخير ضد الظلم.

لقد همشوني منذ فترة طويلة لكنهم رغم ذلك لم يستطيعوا أن يستغنوا عن وجودي في المكان. فأنا من أحجار أساسه، ومن ثمَّ لا يمكنهم أن ينسوا وضعي هنا رغم أن وجودي أصبح صوريًّا، والآن.. دعوني أصفْ لكم ما يحدث في تلك المحاكمة والتي أعتبرها مهمة فأنا أشعر أن نهايتها ستكون عادلة حيث إن بها قلبًا ما زال يقاتل من أجلي وفي سبيبي.

الاندهاش.. إنه الشعور الذي لا يفارقني حينما يطلب القاضي من المتهم الظالم أن يقسم على قول الصدق ولا شيء غيره ويفعل.. سحقًا لذلك الفجور الذي يجعله يحلف بالله كذبًا.. ألا يعلم أن ذلك من عظيم الذنوب..تبًّا له ولأمثالك من الخارجين عن دينهم بأفعالهم.. "اليمين الغموس" .

- هل تعلم أن قضيتك لم تأتِ لنيابة ذات الصلة في مسار طبيعي؟، ولكنها عبارة عن اتهام بالكذب موجه من الأستاذ مختار حمزة رئيس تحرير جريدة الراية، وذلك بعد أن حصل على أوراق تدينك في أثناء إجراء صحيفته أحد التحقيقات الصحفية.

- أجل يا سيدي.. أعلم ذلك.

إنها إحدى قضايا الرأي العام التي تدخل إلى المحكمة من فترة إلى أخرى وتثير ضجة كبيرة في المجتمع حيث إن المتهم هو أحد رجال الأعمال الكبار في الدولة وهو الآن يقف خلف القضبان بسبب تقليل كميات عقار الأنسولين الموجودة في سوق الدواء مما سبب صعوبة بالغة على الكثير من المرضى بأن يحصلوا على هذا الدواء، وعلى النقيض فإن ذلك العقار أصبح فجأة موجدًا بكميات لا بأس بها في السوق السوداء، ولكن بثمن مبالغ فيه، ومن ثم عجز الكثير من المواطنين الفقراء عن شرائه مما أدى في النهاية إلى دخول العديد من الحالات للمستشفيات، وللأسف فقد أسفرت تلك الحالات عن خمس

حالات وفاة جميعها من الأطفال.. كان المتهم هادئًا للغاية، وعندما أنهى القاضي سرد صيغة الاتهام ردَّ من فوره بإجابة يبدو أنه قد كرَّرها من قبل كثيرًا حتى حفظها (أجل يا سيدي أنا أعلم طبيعة الاتهام، ولكنني أنفي هذا الاتهام عن نفسي تمامًا)، يا لتبجحه! هل فقد إنسانيته لدرجة أنه لا يشعر بالذنب مما فعل؟ هل وصل لتلك الدرجة من التوحش والتي لا تجعله يحمل بعض الشفقة على أهل هؤلاء الأطفال؟ ((تبًّا لك.. إن ضميرك لم يمت بل استحال إلى ضمير شيطان يستمتع بفعل الخطأ.. كما أن قلبك لم يمت بل أصبح قلب شيطان خرج من الجنة لاحتقاره البشر)).

- أنا أدرس مذكرة النيابة منذ فترة كافية.. يمكنني أن أخبرك بكل ثقة أن جميع الأرقام التي وردت في المذكرة هي أرقام صحيحة حيث إن المذكرة تُوضِّح فارقًا ضخمًا وواضحًا بين كمية عقار الأنسولين الذي استوردته شركتك وبين الكمية التي تم توزيعها في سوق الدواء، ولا أظن أنك تريدني أن أذكرك بأن شركتك هي المتحكم الوحيد بكمية هذا العقار وسعره وذلك لأنها الشركة الوحيدة المستوردة له في البلاد.

- هذا صحيح، ولذلك قدمنا ما يثبت وقوع حريق بالمخازن التي كانت تحتوي على هذا العقار مما أدى إلى تلف كل الكمية التي كانت موجودة بتلك المخازن، ولقد حرَّرنا محضرًا آنذاك وبالتأكيد فإننا قدمنا صورة من ذلك المحضر للمحكمة.

((أتعلمون.. إن أشد الناس ظلمًا ليس الشخص الظالم نفسه كما يتوقّع البعض بل ذلك القذر الذي يساعده على ظلمه، فلو لم يجد الظالم من يساعده على ظلمه لما استمر به.. لو أنه لم يجد زبانية يصفقون ويهللون له لما جَرُؤَ على الاستمرار فيما يفعله أو على الأقل لما جَرُؤ على أن يتطاول في ظلمه.. لو أنه لم يجد من يساعده لما ازداد جحودًا وفجورًا على العدل.. "علي أبي"))

- هذا صحيح.. ولكن جهة الاتهام هي الأخرى كانت تعلم عن ذلك الأمر ومن ثم قد قامت بالطعن ضد تقرير النيابة بخصوص هذا الشأن وطلبت إحضار خبراء حريق من الخارج على نفقتهم الخاصة لو لزم الأمر وذلك لإعادة الفحص، ومن الجيد أن النيابة كانت ما تزال متحفظة على المخزن ومن ثمَّ لم تجد المحكمة مانعًا من ذلك، وبالفعل حضرت تلك اللجنة يوم السبت الماضي للمعاينة وقامت بتقديم تقريرها والذي ذكرت فيه العديد من الدلائل التي تثبت بها أن هذا الحريق كان مُفتعلاً.

- إذن.. لقد وقعت في الشَّرك.

- احذر مما تقوله.. فالمحكمة لن تقبل بأي اتهامات تعسفية لذلك أنصحك بعدم قول أي لفظ يوحي بالاتهام.. فهذا قد يكلفك كثيرًا.

- اهدأ يا سيدي، فأنا بالطبع لم أكن أقصد المحكمة بل كنت أقصد الجهة التي خلف أصحاب الدعوى القضائية، فإذا بحثت جيدًا

ستعلم أنهم جميعًا عائلات فقيرة أو متوسطو الحال على أقصى تقدير أي أنهم لا يستطيعون تحمل نفقات محامٍ قوي، فكيف لهم أن يتحملوا نفقات تلك اللجنة الأجنبية؟ ما أريد أن أقوله.. أن أعدائي من الشركات المنافسة والذين أيضًا يمتلكون معظم أسهم تلك الجريدة هم مَن ساندوهم ماديًّا حتى يستطيعوا الإيقاع بي.

لقد كان القاضي يعلم أن ما يقوله ذلك المتهم ليس له قيمة حيث المحكمة ليست مضطرة أن تسأل المُدَّعين عن مصادر الأموال التي يدعمون بها قضاياهم إلا في حال اكتشاف أي دليل على الفساد المالي للمُدعي أو للمدعى عليه، وحتى إذا كان هذا الكلام صحيحًا فإن ذلك لا ينفي التهمة الموجة إليه، ولكن القاضي كان متعجبًا من هدوء المتهم الشديد على الرغم من أن التهمة قد ثبتت عليه وعندما استفسرَّ منه عن ذلك أجابه وهو مبتسم:

– لا تقلق يا سيدي فأنا متأكد أنني سأجد حلاً.

– وكيف ذلك؟

– من الجيد يا سيدي أن أمثالك قليلون وهذا ما يساعد أمثالي على فعل ما يريدون.

لقد صَدَقَ هذا اللعين عندما قال ان أمثالك قليلون في هذا المكان لذلك يجب على تلك القلة أن تبقى حتى لا ينتهي الحال بالآملين إلى أخذ عزاء العدل وتجرُّع مرارة قهوة الأسى ومن ثم فإذا كان هذا

المكان في حاجة إلى شخصٍ ما فبالتأكيد سيكون هذا الشخص هو أنت.. أرجو ألا يؤثر فيك ذلك بالسلب فأنا في حاجة إليك.. العدل يحتاج إليك.. (ألم تعرفوا بعد مَن أنا.. إنني منصف المظلوم وأمل الضعيف المهزوم..ملاحق الظالمين العابثين في الأرض بكسر القوانين.. أنا رمز.. مكاني المحكمة ولساني القضاة وهدفي العدل.. إنني فيصل الزجاج للعدل

المباح وجلاد المذنبين.. أنا رمز أساس الملك.. أنا الميزان)

القاضي: كذبة حمراء .. رُفعت الجلسة.

***

الحضانة

في لقائنا الأول سُرق مني شيء ما وبالتأكيد كان ذلك مثل الإنذار لمشاعري.. أما في مقابلتنا الثانية فقد منحني ما زاد اهتمامي به وجعلني حريصة على معرفته أكثر، ففي المرة الأولى سرق مني انتباهًا لم أعطِه رجلاً منذ مدة طويلة، أما في المرة الثانية فقد أعطاني ملامح شخصيته والتي جعلتني أدخله في قائمة اهتمامي مما جعلني أدعوه إلى لقاء ثالث.. لقاء قد يغير مسار حياتي هذا طبعًا إذا جرى كما أريد وثبت لي ما أتمناه، هناك شيء ما قد جذبني إليه.. هذا هو دليلي على أنه مختلف عن غيره.. بالتأكيد لا أقصد هنا اختلاف الشكل أو المظهر الخارجي فهذا آخر ما يجذبني في الرجال ولكنني بالطبع أقصد الاختلاف الداخلي. قلب وفي لزوجته الراحلة وهذا الأمر كان جليًّا في أثناء لقائي الثاني به.. إحساس مرهف أتلمسه دائمًا عندما يتحدث عن ابنته، ولكنني للأسف أظنه أصبح فريسة للإحباط والذي سيكون حائلاً بيني وبينه كما هو حائل بينه وبين قراراته.. أظن أنه سيحتاج المساعدة في هذا الأمر

عندما وعدني بأنه سيحاول لم أكن أتوقّع بأنه سيطلبني بهذه السرعة ليحدد معي موعد حضوره مع ابنته إلى الصف.. بصراحة لقد تفاجأت. بالطبع أنا لم أكن قلقة من عدم حضوره وذلك لأنني أمتلك ما يؤهلني لأكون متأكدة من أنه سيأتي، كما أنني أمتلك بعض الخطط لأكمل طريقي إليه وهذا بالطبع ما يميز الفتيات حيث إن الواحدة منا إذا وضعت رجلاً في رأسها فسوف تصل إليه بأي طريقة كانت؛ لذلك يجب أن يحذر الرجال حيث إن للفتيات خططًا أكثر دهاء مما يظنون، ولكنني في النهاية لم أعد مضطرة لاستخدام أي من تلك الخطط حيث إنني حصلت على ما أريد بعد أولى محاولاتي معه، وهذا للأسف يثبت لي بأنه كان صادقًا عندما قال إنه لم يعد يرى أن هناك أملاً، أظن أن هذا هو سبب قبوله لدعوتي بهذه السرعة.. نعم.. أظن أنه يبحث عن أي دليل على وجود هذا الأمل وهذا بالطبع شيء مقلق، أما ما أتمناه.. أن أكون أنا أحد أسباب حضوره إلى الصف وبالتأكيد سأكون مسرورة إذا شعرت بذلك.

((هيا أيتها الغبية.. انهضي من سريرك ولتبدئي يومك بنشاط.. فلديك اليوم رجل تريدين الإيقاع به، هل أرتدي هذه؟.. أم هذه؟.. يا إلهي! كان يجب أن أشتري ملابس جديدة حتى أظهر أمامه في أبهى صورة.. ما هذا الغباء؟ لماذا لم أفعل ذلك؟.. آآآآآآآه ماذا أفعل الآن؟)).

عندما أجبت على هاتفي وسمعت صوته.. تغلغلت أنفاسُه إلى قلبي لتربط لساني وتجعلني على أقصى تقدير أُهمته في كلامي، لأجل ذلك ظن أنه اتصل في وقت غير مناسب ومن ثمَّ قال إنه يستطيع أن يغلق الخط ويتصل في أي وقت آخر.. أي وقت آخر؟!! وما الوقت الذي سأكون فيه جاهزة لاستقبال مكالمته دون أن أهمته؟ إنه لا يدرك أن أي وقت ستسمع فيه أذني صوته سوف ينعقد لساني، لذلك أخذت نفسًا عميقًا كان ذلك بالطبع بعد تفكير أعمق في عرضه بغلق السماعة ثم أخرجت جملة أرتدي بها قناع الثقة بالنفس (كنت عارفة إنك هتتصل.. بس كنت خايفة تتأخر).. ليجيبني ....(يعني كنت مستنية مكالمتي؟)، لتجيبه مشاعري هذه المرة رغمًا عني..

(مستنياها بفلوغ الصبر.. عشان أثبتلك طبعا إني لسة فيه أمل).؟
ضحك ولم يرد إلا بجملة أخبرني فيها أنه سيحضر مع ابنته في أول أيام الأسبوع المقبل.

(أجل.. سأرتدي هذه التنورة.. أظن أنها أفضل ما لدي كما أنني أظنه يفضل لألوان الهادئة))

أما لو سألتموني عما سأفعله اليوم عندما أقابله سأخبركم بأنني لا أعلم. فأنا أفكر في ذلك منذ ثلاثة أيام ولم أصل إلى نتيجة.. إنه شخصية مختلفة لا أعرف لعقله طريقًا كما أنني حتى الآن لست

متأكدة.. هل جاء بحثًا عن الأمل؟ أم جاء من أجلي.. لهذا قررت ألاَّ أفكر في الأمر وسأدعه يقوم بالخطوة الأولى.

لقد قال لي إنه سيحضر مع سارة ولكنه لم يفعل وعندما سألتها أخبرتني أنه قال لها إنه سينهي بعض الأمور المتعلقة بالعمل ثم سيحضر سريعًا، لقد مرت ساعة حتى الآن ولم يحضر.. هل هو مشغول فعلاً أم أنه شعر أنه تسرَّع وقرر ألا يأتي؟ على العموم ليس أمامي سوى الانتظار.. (هيا يا أولاد فليخبرني كلٌّ منكم.. ماذا فعل في العطلة؟) بعد مرور ساعة ... وصل ماجد ...

- ظننتُ أنك لن تأتي.

- أعتذر عن التأخير، ولكنه كان أمرًا مهمًّا خاصًّا بالعمل، ولم أتمكن من تأجيله.. هل فعلتم شيئًا مهمًّا من دوني؟

- بالطبع.. درس الموسيقى.

- أرجو أن تعذريني.. لو كنت اعرف أنني سأضيِّع درس الموسيقى ما كنت لأتأخر قط.

لقد قضيتُ معظم إجازتي وأنا أفكر كيف سأقضي الوقت معه.. ماذا سأفعل حتى يقتنع أن هناك أملاً؟ ماذا يجب عليَّ أن أفعل. وفي النهاية توصلت أن أتركه يتعامل مع الأطفال حتى يرى لمعة عيونهم وهم يتعلمون كُلَّ ما هو جديد أو يشعر بحيويتهم وهم يلعبون. أن

يراهم وهم مُصرُّون على الضحك ندى.. ببساطة لقد قررت أن أشركه معهم في كل ما يفعلون؛ لذلك لقد جعلته مسئولاً عن مجموعة من الأطفال يتابعهم ويوجههم في أي شيء يفعلونه. وبعد انتهاء درس التلوين يكون دائمًا الدور على موعد القصة، ولأنني أردته أن يقترب أكثر من الأطفال طلبت منه أن يقصَّ هو إحدى القصص عليهم.

– ما هذا الإحراج؟ ولكنني لا أعرف أي قصة.

– ليس أمرًا صعبًا، فلتحكي أي شيء.

أي شيء؟ مثل ماذا؟ يا إلهي ما هذا الموقف المحرج؟ لا أعرف ماذا أحكي لذلك سوف أحكي ما يمليه عليَّ عقلي الباطن..

– ألم تسمعوا عن قصة الحريق الذي نشب بمنزل أحدهم؟

– لاااااا

– إذن.. سأخبركم بها.. يقولون إن حريقًا هائلاً قد نشب في منزل صغير مُكوَّن من طابقين.. كان صاحب المنزل عائدًا من عمله حينما شاهد النار وهي تلتهم منزله والناس وهم مجتمعون حوله يحاولون إخماد تلك النار العظيمة. عندما شاهد ذلك الرجل هذا المشهد بدأ بالصراخ.. في البداية ظن الناس أنه يصرخ على منزله المحترق ولكنهم بعد ذلك اكتشفوا أنه يصرخ لأن ابنته ما تزال داخل المنزل يا الهي.. إنه لا يعلم ماذا حدث لها.. هل تأذت أم لا؟ ولكنه وبكل بسالة اقتحم المنزل غير عابئ بألسنة اللهب التي تتطاير حوله؛

فقد كان هدفه هو الوصول إلى ابنته وعندما وصل إلى غرفة نومها حيث كانت قبل أن يغادر المنزل وجدها بخير ولكن ألسنة اللهب تحيط بها من جميع الاتجاهات ومن ثم لم يكن أمامه إلا أن يترك الفرصة لمشاعر الأبوة لكي تتحرر... خطوتين واسعتين ثم قفزة عالية ثلاث حركات كانت كفيلة لأن يتخطى النيران ويصل إلى ابنته بنجاح، ولكنه عندما وصل إليها اكتشف أنه أصبح محبوسا معها ولولا تلك النافذة خلفهما لكانا ماتا اختناقًا، وفي الوقت الذي ظن فيه الوالد أنهم هالكون وصلت سيارة الإطفاء واستطاع أحد رجال الإطفاء بواسطة سلم الإنقاذ أن يصل إلى النافذة.. لا بد أن فرج قد جاء بأمر الله.. هذا ما ظنه الوالد في البداية ولكنه تفاجأ بأكثر الأشياء سخفًا في العالم، فمن المعروف أن يقوم رجال الإطفاء بإنقاذ الجميع دون أي استثناءات، ولكن الأب فوجئ بما لا يمكن لعقله أن يتقبله.. لقد كان رجل الإطفاء هذا غير طبيعي.. إنه يريد أن ينقذ الأب فقط ويترك الابنة لتلقى مصيرها.

هل أنت مجنون؟ هذا السؤال وجهه الأب له وهو يصرخ ثم أكمل: إذا كنتَ مضطرًا لإنقاذ أحدنا.. فأنقذ ابنتي واتركني هنا لألقى مصيري، ولكن رجل الإطفاء أجابه رافضا: (لن أنقذ إلا إياك.. لا يجب عليك أن تحزن، فأنت لم تكن تحبها كثيرًا).

عندما سمع الأب ذلك تحوَّلت ملامحه من ملامح الغاضب إلى ملامح المصدوم ليرد عليه بصوت مبحوح.. ما الذي تقوله؟ كيف لك أن تعلم أنني لا أحبه.

في تلك اللحظة تحوَّل وجه رجل الإطفاء إلى شخص يعرفه الأب جيدًا، ثم بدأ ذل الشخص في سؤاله: وكيف كان لك أن تقرر أنني لم أكن أحب ابنتي؟ وكيف كان لك أن تحكم عليَّ بالإعدام وأنت تعلم أن هناك مَن يحتاجني؟ وكيف كان لك أن تحكم على ابنتي باليتم؟ وكيف لك...؟

لقد صدمت حقًّا عندما وجدته يحكي تلك القصة للأطفال لذلك قررت أن أوقفه حيث إن الأطفال لا يحتملون ذلك النوع من القصص المرعبة (ما هذا الذي تقوله للأطفال؟ لقد طلبت منك أن تحكي لهم قصة وليس فيلم رعب).

– أنا آسف، لم أكن أقصد.. ولكنني أخبرتُك أنني لم لا أعرف أي قصص.

– لا بأس.. على العموم لقد انتهى اليوم الدراسي على خير.
– حقًّا! إذن..اسمحي لي أنا وسارة أن ندعوك على الغداء.
– لا أدري.ولكنني لم أخبر والدتي بأنني سأتأخر.
– ولكنك لن تتأخري كما أنني سوف أوصلك إلى المترل.. ما

ردُّك؟

- موافقة، ولكن دعني أخبر والدتي أولاً ثم ننطلق.

***

في الحقيقة.. لقد أخبرتُ والدتي منذ الصباح أنني سوف أتأخر بعد العمل مع زميلاتي، فأنا لم أكن أنتوي أن ينتهي هذا اليوم دون أن أقوم بأي خطوة تُقرِّبني منه ولكن وللمرة الثانية كان هو الذي سبقني ودعاني للخروج معه، وإن كان يظنُّ أنني كنت أتمنعُ لأرفض فهو مخطئ، ولكنني فقط كنت أريد أن أعرف.. هل رفضي سيشكل لديه فارقًا؟ هل سيبدأ في الإلحاح أو الإصرار إذا ما تمنعتُ؟ أم أنه كان يقدم عرضًا لمرة واحدة وأيًّا كان الرد الذي سأقوله كان سيرضى به دون نقاش أو مماطلة، ولكنني وبكل غرور أستطيع أن أقول إنه قد فعل ما كنت أتوقعه تمامًا فقبل كل شيء.. أنا أمتلك من المقومات ما يمكنني من إسقاط أي نفس ذكورية، والدليل على ذلك وجودي معه الآن على المنضدة نفسها حيث يمكنني أن أجزم أن ما نحن فيه الآن هو "موعد"، لكنه فقد يخلو من الانقباضات العضلية.

***

لقد خفتُ كثيرًا أن ترفض دعوتي لها على الغداء، ولقد كنت أتمنى أن تكون دعوتي لها فردية حيث سنستطيع أن نتحدث بحرية. ولكنني في النهاية لا أستطيع أن أخرج دون سارة.. في الحقيقة لقد

توقعتُ أن أشعر بالإحراج عندما ستسألني عمَّا كنت أحكيه للأطفال، ولكن شعوري كان مختلفًا.. لقد كنتُ خائفًا من حكمها على الأمر برمته، فهل أجازف وأخبرها بالحقيقة لتظنني مريضًا نفسيًّا؟ أم أكذب لتظنني مجرد أبله أخطأ اختيار نوع القصة التي يحكيها لأطفال في هذه السن ...لا أعلم.. ولكنني أظنُّ أنني إذا أردتُ أن أُحرزَ تقدُّمًا في هذه العلاقة فلا بد أن يكون كل شيء واضح منذ البداية؛ ولذلك أخذت نفسًا عميقًا ثم وضعت به الجملة التي صغتها وأخرجته وأنا أتمنى ألاَّ يكون أسوأ نفس قد أخرجته في حياتي... (إنه كابوس يتردد عليَّ كثيرًا في أثناء النوم) لقد كان رد فعلها غريبًا جدًّا فقد نظرت إليَّ بكل هدوء ثم ابتسمت واستمرت في تناول طعامها.

- ولم هذا الصمت المفاجئ؟

- وماذا يمكنني أن أقول؟

- يمكنك أن تخبريني رأيك.. هل أنا شخص طبيعي؟ أم ترين أنني مريض نفسي.

- جميعنا مرضى نفسيون ولكن بنسب متفاوتة، فأنا أيضًا يأتي عليَّ أوقات أشاهد فيها بعض الخيالات.. فهل هذا يعني أنني مجنونة؟ لا أظن ذلك. كما أنني لا أظن أن المشكلة هي أن تكون مريضًا نفسيًا ولكن المشكلة في مدى تأثير ما تراه في تصرفاتك.

لم أعرف ماذا أقول.. لقد أبهرتني بعمق رأيها الذي جعلني أريد

احترامي لها حيث كانت تتحدث إليَّ وهي مبتسمة وكأنه أمر ليس مهمًّا على الإطلاق، وكما قلت من قبل لم أكن أعرف ماذا كان يجب عليَّ أن أقول-ولكن سارة أنقذتني من ذلك الموقف حينما تدخلت.

- ما شاء الله.. هل ستظلون تتحدثون كلامًا لا أفهمه.. "ماجد" هيا بنا نتسكع قليلاً.. لقد مللت من الجلوس.

- نتسكع؟! هل هناك طفلة في العالم تطلب من والدها أن يتسكع معها.. أمري لله ..هيا بنا.

***

لـو

لو أنه جرَّد نفسه من مخاوفه، وصارحها بما في قلبه من معاناة بينه وبين حاضره وقلق يغزو عقله تجاه مستقبله ومشاعر يُكنُّها لها لأدرك أن الأمر أقل تعقيدًا من ذلك.. ولو أنها استبسطت صدق مشاعرها وأيقنت أن ما تكنه له هي مجرد مشاعر بريئة لا تحتاج لكل ذلك التخطيط وكل تلك التعقيدات لأدركت أنه كان يجب عليها أن تبوح له ..والبوح.. هي الصراحة التلقائية في الاعتراف بالمشاعر.

ولو أنه افتقد التعقيد الذي يظن أنه لا يستطيع أن يحيا بدونه ثم قال لها : (إنني أريدك معي في حياتي لأنها لن تستقيم بدونك) لكان ذلك كافيًا لأن يغزو قلبها، ولو أنها استبسطت الخطة مع أن الأمر لا يحتاج لمثل ذلك، لتقول له : (إنني لا أستطيع أن أوقف أمواج عشقي من أن تغمر رمال قلبك، وأنا في حاجة لأن تمتصَّ رمالك ماء أمواجي) لكان أجابها قائلاً: (إن رمالي لن ترتوي أبدًا مهما نهلت من ماء أمواجك والتي أبدًا لن تتذوقيها مالحة).

ولو أنكم تفحصتم حقيقة حياتكم لوجدتم أنكم لن تستطيعوا أن تعيشوا بدوني.. ليس لأنني سبب نبض قلوبكم، ولكن لأنني أُطهِّر المشاعر التي تكنونها لبعضكم البعض، فكفوا عن نهش لحمي وتقطيع أوصالي، واستيقظوا كل صباح برضى عن تجاوز غيركم في حقوقكم فتقتلوا بذلك حقدكم.. وعفو عن أذى يوم أمس فتلجموا بذلك غضبكم.. ودعاء بالخير للغير فتطهروا بذلك قلوبكم، أدعو كل مالكي الأرض أن يوقفوا شلال الدماء المتدفق فأنا لن أشرب منه كما يشربون.

أن يكفوا عن زراعة نباتات الحرب فأنا لن أرضى بأكلها.. أن يتراجعوا عن نشر ذرات الحقد فأنا لن أتنفسها.. نعم.. لن أشرب.. لن آكل.. لن أتنفس، إذن فأنا على وشك الموت أو أنا كذلك وأنا لا أدري.

ولو أنني كنتُ أقوى من ذلك فحاربت من أجل البقاء لكان ذلك خير للعالم، ولكنني لم أخلق للقتال. فأنا أصل البراءة ومعدن الابتسامة وغذاء الروابط بين المخلوقات.. أنا قاتل الحقد بالتصافح ومُنهي الأزمات بالعناق وصائد الحزن بسهام الضحكة. تراني في الابتسامة وتلمحني في الدمعة وتشم عبقي في العناق أنا ضحكة الأم وأنينها.. رضا العشاق وعتابهم.. لعنة القلب وآسر العقل، أنا البراءة.. أنا النقاء.. أنا البقاء.. أنا الحب.

الجلسة الرابعة

(الأخيرة)

في زمان كالذي نحن فيه الآن سنجد أن أكثر الناس عرضة للإصابة بالاضطرابات النفسية هم أولئك أصحاب النفوس المستيقظة.. مساكين.. إنهم لا يستطيعون أن يسدوا آذانهم عن سماع صرخات المستضعفين أو أن يغمضوا أعينهم عن الانتهاكات المستمرة في حق الإنسانية، والغريب في الأمر أنهم ما زالوا يكنون احترامًا مقدسا للقانون.. القانون الذي ما يزال يخذلهم ولا يساعدهم على الإطلاق.. أظنه احترام غير مُبرَّر كما أنني أظنهم لا يعرفون سبب ذلك. على الرغم من أنهم لو أمعنوا النظر لأدركوا أن القائمين على القانون هم أكثر الناس انتهاكًا له وما إن يأتي الليل حتى يخلدوا إلى سرائرهم ويناموا بعمق كالأطفال ليتركوا آثار تلك الانتهاكات تهاجم أصحاب النفوس المستيقظة وتصيبهم بالأرق أو قد تمتدُّ إلى ما هو أشد ضررا من ذلك فتحوِّل فترات نومهم إلى فواصل من المشاهد

المرعبة كما الحال مع ماجد.. ماجد الذي كان قويًا بما يكفي ليطلب مني المساعدة في إنقاذ حياته من الانهيار، ولكنه كان أشد حرصًا على إنقاذ روحه من الغرق في بئر الذنوب البشرية والذي ما يزال يزداد ظلمة بسبب إدمان البشر الذنوب.. ذنوب في حق أنفسهم وأخرى في حق الإنسانية.

منذ أن بدأت جلساتي مع ماجد وهو يفاجئني في كل مرة بما يجعل حالته أشد تعقيدًا من المرة التي تسبقها، أظنه بدأ يشعر أنني لن أستطيع مساعدته وأظنه أيضًا لم يعد مقتنعًا بي طبيبًا جيدًا، ولكنني أقسم على أنه هو من جعل حالته تصل إلى هذا الحد.. نعم.. هو من جعلني أشعر بأنني لا أستطيع مساعدته بالطرق المتداولة والتي يستخدمها كل الأطباء؛ لذلك سأطلب منه في هذه المرة أن يقوم بتغييرات جذرية في حياته.. لا أعلم كيف سيكون رد فعله عندما أطلب منه أن يهدم حوائط أساسية في بناء حياته، ولكني أتمنى أن يلاحظ أنها على الرغم من أنها أشياء عظيمة وأساسية من وجهة نظره فهي في النهاية ستظل حوائط وليست أعمدة.. أي أنها أشياء مهمة، ولكن يمكن تغييرها دون أن تتأثر حياته.

في بداية هذه الجلسة شعرت أنه من الواجب عليَّ أن أبارك له، فقد أصبح نجمًا بارزًا بعد تلك المحاكمة الأخيرة حيث أصبحت صورته تحتلُّ واجهات أغلب الصحف، ولكنه ابتسم وقال لي إنه حتى

ولو كان حكمه على ذلك الشخص مخففًا فإن الصحافة كانت ستظل على موقفها الثابت من الهجوم عليه، وعلى الرغم من أنه كان مبتسمًا فإن الغضب من مقالات الصحف كان ظاهرًا في حديثه، فجميع تلك المقالات كانت تتهمه بأنه تسرع وأنه كان يجب عليه أن يؤجل هذه القضية كما كان يفعل مع القضايا السابقة.. كان اعتراضه على ذلك واضحًا في حديثه.

***

- تأجيل؟! ألم تكن موجودًا؟! لقد كان الجزء الأخير من حديثه عبارة عن اعتراف واضح.. لقد كان يتحدث وكأنه مخلوق من طينة أخرى.. عنصرية فاجرة.. أظن أنه لا يستحق الموت على جريمته أكثر مما يستحقها بسبب تلك العنصرية التي كان يظهرها ويتباهى بها أمام الجميع دون استحياء.

لقد كان غاضبًا بشدة من تلك العنصرية التي كان يظهرها ذلك المتهم.. لا بد أنه لا يدرك أن العنصرية من السمات الموجودة عند البشر، للأسف جميعنا كذلك، فعندما ننظر إلى أي مشكلة من بعيد تُبدي رأينا في تلك المشكلة بكل حيادية أما إذا أصبحنا في داخل تلك المشكلة أو طرفًا أساسيًّا بها سنجد أن رأينا سيكون مختلفًا تمامًا عن السابق، وعندما يسألنا أي شخص: لماذا غيرت رأيك بمجرد أن موقفك من المشكلة قد تغير؟ فتجدنا جميعًا نقول نفس الرد الشهير

جدًّا والعنصري للغاية: ((لأ.. الموقف اختلف.. لان أنا مش زي أي حد)).. جميعنا نرى أنفسنا مختلفين عن غيرنا على الرغم من أننا في الحقيقة لسنا كذلك، وبالطبع لا يمكننا أن ننسى الرد الشهير الذي نُردده في أي شجار ((انته مجنون؟ انته مش عارف انته بتكلم مين؟)).. للأسف جميعنا نُطبِّق العنصرية في أقوالنا وأفعالنا ولكن بنسب مختلفة.

– لقد حاولت أن أكون نزيهًا في حكمي للغاية ولكنني في النهاية اكتشفت أن تلك النزاهة ليس لها وزن، فقد كان واثقًا من أنه سيجد حلاً.

– لم يعد خطأك بأي حال من الأحوال، فقد أرضيت ضميرك.

– أعلم ذلك، ولكن في الوقت نفسه أشعر بأنني أشارك بالظلم..

لو أخطأ الفقير في شيء ما حتى ولو كان هينًا نعاقبه وبشدة، أما الغني فيستخدم ماله ليحصل على العفو أو ليجد طريقًا إلى النجاة.. أين العدل إذن؟ قال أحد الحكماء ذات مرة: ((لم تكن الحياة عادلة قط حتى يستعجب الناس ظلمها))، وعلى الرغم من أنني أرى أن ذلك الحكيم كان متشائمًا للغاية فقد كان على صواب في أغلب الحالات.. لا أقصد بكلامي بالطبع أن الأمل قد أصبح منعدمًا، ولكنني أقصد أنه إذا أردنا أن ننتزع العدل لا بد أن نمتلك القوة الكافية لذلك. فالشر قويٌّ جدًّا لذلك لن نستطيع أن نجابهه إلا بالقوة

ولكي أكون مُحدَّدًا.. أنا أقصد نوعًا معينًا من القوة ألا وهي القوة التي تتسم بالمكر ذلك لأن الشر يمتلك أعلى درجات الخبث، كما أننا مع الأسف قد نحتاج في بعض الأحيان لقوة أكبر كي نجعل ضمائرنا تنام، ولكن الجميع للأسف يعلم (أن الضمائر إذا نامت لا تستيقظ أبدًا) وهذا كان السؤال الذي كان واجبًا على ماجد الإجابة عنه: (هل هو مستعدٌّ أن يقتل ضميره؟)

- بالتأكيد لا.

- إذن عليك إيجاد حلٍّ آخر.

- ماذا تقصد؟

- مع ذلك الشعور الذي أصابك بعد القضية الأخيرة، أظن أنك قد أدركتَ فشلك في المقاومة.

- وماذا يجب عليَّ أن أفعل؟

- إذا كنتَ لا تستطيع أن تنقذ القانون فجدْ حلاً آخر.

- وما ذلك الحلُّ الآخر؟

للأسف لم تكن لديَّ الجرأة أن أطلب منه ذلك صراحة، ولكنني وصلت في تلميحي معه إلى أبعد الحدود حينما قلت.. (ما يمكنني أن أقوله هو أنك إذا فشلت في طريق ما فاعترف بذلك ثم غيِّر طريقك قبل ألاّ تجد الفرصة لذلك، ومن ثم تضيع حياتك هباء). ثم زدت

على ذلك قائلاً: (أما النصيحة التي أريد أن أكررها على مسامعك مرة أخرى هي أنك يجب أن ترتبط بشخص ما يهتم بك وتهتم به ثم تقوي علاقته أو دعني أقل علاقتها بابنتك حتى تشعر نفسك بالطمأنينة فيما يخص ابنتك إذا ما أصابك مكروه – لا قدر الله –)، ولكنني في هذه الجزئية كنت صريحًا معه للغاية (أنا أقصد أن تتزوج ....الزواج هو الوسيلة المثلى للطمأنينة والسكون، فأنت تختار شخصًا ما لتقترب منه إلى أقصى درجة فتقتل بقربه الوحشة التي بداخلك وتستبدلها بالطمأنينة ثم تدعه هو الآخر يقترب منك لتمنحه بدورك الطمأنينة.. في هذه اللحظة بالذات ستشعر بالقوة والأهمية، لأنك قد أصبحت المصدر الأساسي لهذا الشخص لذلك الشعور.. ببساطة.. إن الزواج هو مصدر الطمأنينة لكل مستوحش.

– إذن هذا آخر ما تنصحني به.

– ألن تزورني مرة أخرى؟

– أظنني سأكتفي بهذا القدر.. على الأقل للفترة القادمة، ولكنني أعدُك بأنني سألجأ إليك إذا احتجت للنصيحة.

تقرير (4)

في قضيته الأخيرة وعندما أطلق حكم الإعدام على ذلك المتهم كان يدرك جيدًا أنه يضع ضميره في موقف صعب، ففي القضية السابقة لها كان قد أطلق حكم الإعدام على شخص وهو يوقن في قراره نفسه أن ذلك الشخص مظلوم بشكل ما، وعلى الرغم من ذلك أعطاه الحكم نفسه الذي أهداه ذلك الحقير، ومن ثم فقد كان من المنطقي أن يضع عقله في مقارنة ليست عادلة بين صفاتٍ وأسباب ليس لها علاقة ببعضها البعض، ولكنها للأسف قد أدت للنهاية نفسها.

في القضية الأولى كانت قلة حيلة المتهم أو لنقل فقره هو سبب ما انتهى إليه، أما في القضية الثانية كان جشع المتهم هو سبب النهاية نفسها.

في القضية الأولى خجله من فقره هو ما جعله يكذب على زوجته، أما في القضية الثانية كانت عنصريته لصالح ذوي المال هي ما جعلته

يكذب على باقي فئات المجتمع ..عنصرية مقرفة جعلته يؤمن بأن أصحاب المال هم فقط من لهم الحق في الحصول على العلاج، وللأسف فإن أغلب من لهم علاقة في هذا العالم بصناعة الدواء أو بتجارته متشبثون بتلك العنصرية التي لن نجد لها أنسب من وصفها بأنها حقيرة، ومن ثم لا يمكننا أيضًا أن نصف العالم الذي سمح لها بأن تتفشى به إلا بأنه.. آثـــم.

لقد تبعثرت أوراقه وتشتت.. كيف له أن يقارن بين الفقر والجشع؟ بل.. كيف يحصل الفقير والجشع على المصير نفسه؟ هل في هذا الزمان أصبح الفقر والجشع جريمتين على القدر نفسه من المساواة والخطورة؟ بل.. كيف يتساوى الخجل والعنصرية؟ كيف تتساوى عند العدل رائحة زنبقة الحياء وعفونة العنصرية؟ أي أنف يمتلك؟ أو بالأحرى.. أي أنف لا يمتلك؟

***

التقرير الأخير

أولًا: هذه هي آخر جلسة علاج بناء على طلب المريض مما يدل على أنه لم يعد يحتاجني.. بمعنى أدق أنني قد فشلت في مساعدته.

ثانيًا: أعراض المرض

أعراض مستمرة: الكوابيس التي تزيد حالته سوءًا فهي تضغط على أعصابه وتذبذب مشاعره وتهاجم ضميره.. ومن تُفقده السيطرة.

أعراض جديدة:

1) بعد المقارنات الغريبة التي أقامها عقله بين القضيتين الأخيرتين تولّدت لديه حالة واضحة من تذبذب الأفكار وعدم ثقة بمعايير العدل بل عدم ثقة بمعايير الحياة.

2) بعد أن شعر بأن المتهم الأخير سيجد مخرجًا من الحكم الذي وقعه عليه اهتزت الثقة مرة أخرى بينه وبين قوة العدالة وما يجب أن تكون عليه قوانينها.

ثالثًا: نصائح ما بعد الجلسة

- كان ما وجهتُه له في نهاية الجلسة أقرب إلى الأوامر منه إلى النصائح.

1) مع أنني لم أطالبه لفظًا بترك وظيفته فقد كنت واضحًا هذه المرة في الإشارة إلى ذلك، فلقد أصبحت وظيفته عبئًا ثقيلًا عليه وعلى ضميره. ومع كل الأسف ففي طلبي ذلك دليل آخر على فشلي في مساعدته كما ينبغي.

2) أستطيع أن أجزم بأنه لم تعد لديه القدرة على أن يحيا وحيدًا؛ ولذلك كان طلبي له هذه المرة صريحًا بأن يجد من يألفها قلبه ويرتبط بها.. نعم.. إن الزواج هو الحل الأمثل لقتال الوحدة، فذلك الشعور لا ينبغي أن يزورك وأنت متزوج وإن حدث وزارك فتلك مهزلة لا بد أن تُنهيها في الحال.

(2)

رسائل

هناك لحظات في حياتنا حينما نكون مضطرين لسؤال أنفسنا ...لأي مدى نحن مستعدون للمُضي قُدمًا حتى ننال ما نريد؟ لأي مدى نحن مستعدون للمخاطرة.. للتضحية.. للتحمل؟ لأي مدى نحن مستعدون للتنازل عن طريقتنا الخاصة في الحياة؟ لأي مدى نحن مستعدون للتخلي عن ضمائرنا؟ لأي مدى نحن مستعدون للتنازل عن حرية قلوبنا؟ لأي مدى؟

جميعها أسئلة سنضطر جميعًا للتوقف والإجابة عنها، فلنأمل جميعًا ألاْ نتأخر في ذلك لأننا لو فعلنا فسنكون قد أضعنا حياتنا هباء.

***

إن النية في فعل شيء ما قد تتحول إلى حاجز منيع أمام تحقيقه إذا لم تكن صادقة بمعنى الكلمة، لذلك إذا تيقنت من صحة ما تريد فعله فلا تضيع وقتك في التفكير الزائد بل تحرّك لتنفيذه وأنت مغمض العينين. لقد قررتُ اليوم أن أُنهي تلك المأساة التي أعيشها. لقد

قررتُ أن أريح ضميري اتجاه ما يؤذيني وهو ما أظنه يؤذي الكثيرين غيري، ولكنهم ليس لديهم القدرة لإيصال كلماتهم إلى هذا الحد، وقد كنت أستطيع أن أطلب المقابلة الشخصية ولكنني فضلتُ الرسالة المكتوبة لأنها أقل درجات الاحتكاك بتلك الحياة التي قررت أن أتخلى عنها.

***

سيدي الرئيس ..

تحية طيبة وبعد،

أدعى المستشار : ماجد عنان أحمد.. أعمل قاضيًا عالميًّا وما يلي هي استقالة مسببة وأرجو من سيادتك قبولها.. فبأبسط العبارات أنا أطلب من سيادتك أن تعفيني من مهنتي قاضيًا عالميًّا، ولولا أنه يجب عليَّ هذه الاستقالة أن تكون مسببة لما وجدت داع للكلام مع أني أجزم أن ضميري الذي أجبرني على تقديم هذه الاستقالة كان سيجبرني أيضًا على قول الحقيقة دون أخذ أي فاصل من المجاملات.

إنني وبكل صراحة وبعد أن عملت لفترة كافية في منصبي ثبت لي عمليًّا أن ذلك الباب الذي وضع في بداية دساتير العالم ليقضي على الكذب يؤدي دوره المطلوب منه وهو الوقوف بالمرصاد أمام الكذب، ولكنه وبكل أسف يقضي على الإنسانية والمعاني السامية داخل قلوب المواطنين فهو وللأسف يفصل بين أمور ليس لها علاقة ببعضها وهذا في حد ذاته ظلم بين للطبيعة البشرية كما أنه يحاسب البشر على ما ليس لهم..

قلة المال وقلة النفوذ أريد أن أخبر سيادتك بأنني بعد أن أدركت هذه الحقيقة المرة لم أستسلم ولكنني حاولت كثيرًا أن أقاوم أو أن أجد مبررات لظلمه الذي أظنه غير مقصود، ولكنني للأسف فشلتُ في جميع المحاولات حيث خذلني ضميري وأثبت لي بأنه مستيقظ ولن يغفل أبدًا فبدأ في معاقبتي على السكوت.
لذلك هذه الاستقالة هي محاولتي الأخيرة لإرضاء ضميري وعقد هدنة معه..

في نهاية خطابي سأوجه لسيادتك النصيحة وأرجو أن تتقبلها مني بصدر رحب، فأنا أرجو من سيادتك أن توقف العمل بذلك الباب، فأنا أظن بأنه قد حقق ما يهدف إليه وهو تعليم البشر خطورة الكذب وأريد أن أنبه سيادتك بأن استمرار العمل بهذا الباب ما هو إلا هدم لقيم بريئة راسخة في معتقدات البشرية..

أرجو من سيادتكم تقبل نصيحتي.. أرجو من سيادتكم إنقاذ ضمير البشرية.

مع جزيل الشكر

المرسل / المستشار : ماجد عنان أحمد

لا يمكن لأحد منا أن يحيا دون أن يعاني ألمًا من نوع ما، وبالنظر إلى نصيبي من الحياة فيمكنني إخباركم أن أصعب أنواع الألم هو ذلك الناتج عن الوحدة.

ويقال: "إن أخذ العبرة من شيء ما يعد أمر، لكن إيجاد القوة لتحقيقها هو أمر آخر".. ولذلك لقد بحثت عن هذه القوة لأحقق ما نصحني به الطبيب، وهأنذا سعيد جدًا لإيجاد تلك القوة.

***

صديقي دكتور شادي ..

تحية طيبة وبعد،

في البداية.. أحب أن أعبر عن سعادتي بمعرفتك والتي كنت أتمنى أن تكون في ظروف أفضل.. أبعث إليك هذا الخطاب بعد شهر من انقطاعي عن زيارتك لأحدثك عن حياتي الجديدة.

في البداية أحب أن أخبرك أنني أخذتُ بنصيحتك وقدمتُ استقالتي لرئيس الدولة وأنا في انتظار قبولها.. أريد أن أخبرك أيضًا أنني اخترتُ وظيفة جديدة أظن أنها ستساعدني بشدة على استعادة نفسي، فلقد اشتريت روضة الأطفال التي تذهب إليها سارة وأصبحت مديرها.. لقد قطعت الكثير من الألسنة، لذلك فأنا عازم على أن أزرع مكانها مئات الألسنة في أطفال سأجعلهم ينبذون الكذب بناء على القيم وليس خوفًا من القوانين.. ولقد أخذت العديد من الأرواح لذلك سأزرع مكانها أرواحًا بريئة ستخرج إلى المجتمع لتزرع به روح الصدق.

أما بالنسبة لنصيحتك الأخرى، فأنا أطمئنك بأنني أخذت بها أيضا حيث إنني أقدمت على خطبة فتاة تدعى ندى كنت قد تعرفتُ إليها منذ مدة وهي تعمل مدرسة في روضة الأطفال التي اشتريتها وأظن أننا سنتزوج قريبًا.

لقد كنتُ أريد أن آخذ بنصيحتك وأتزوج سريعًا، ولكنني فضلتُ الانتظار حتى أرى نتائج نصائحك. وبالنسبة لذلك فأنا أريد أن أطمئنك فعلى الرغم من أن الكوابيس ما زالت تزورني إلا أنها أصبحت أقل حدة من السابق، كما أن وجود سارة بها قد قل بصورة كبيرة. وهذا ما يطمئنني ...

في النهاية.. أريد أن أشكرك على مساعدتي، وبالتأكيد سوف تصلك دعوتي لحضور الزفاف.

صديقك / ماجد عنان أحمد

ردُّ الفعل

أعزائي المستمعين.. أهلاً ومرحبًا بكم في حلقة جديدة من برنامجكم ((أضواء)).. يمكنكم دائمًا متابعتنا على قناة ((New fm)) على تردد ((109.6)) .

بالأمس فاجأ السيد الرئيس السادة النواب أعضاء مجلس الأمة بطلبه اللجوء إلى استفتاء شعبي فيما إذا كان الشعب يريد أن يوقف العمل بمواد الباب الأول من الدستور والمتخصصة بالمحكمة ذات الصلة أم أنهم يريدون أن يبقوا عليها في مقدمة دستور بلادهم مثل باقي دول العالم ..

مستمعينا في كل مكان.. يمكنكم مشاركتنا بآرائكم عن طريق الرسائل النصية (SMS) أو على صفحتنا على (face book ..... فاصل إعلاني ونعود إليكم من جديد.. أرجو أن تتفضلوا بالبقاء معنا.

***

أهلاً بكم من جديد مستمعينا الأعزاء على قناة ((New fm))
.. على تردد ((109.6))، دعونا نبدأ معكم قراءة الرسائل النصية
التي بالطبع تمثل آراءكم فيما يخص قرار السيد الرئيس ..

الرسالة الأولى تقول: ((الريس من حقه يعمل اللي هو عاوزه..
هو فاهم أحسن مننا وعارف إيه المناسب لينا.. سيبو الراجل يشتغل
بقه))

رسالة أخرى تقول: ((طالما إن الموضوع استفتاء.. يبقى الشعب هو
اللي هيحدد هو عاوز إيه.. ده طبعًا إذا اعتبرنا إن الشفافية
موجودة))

وهناك رسالة تقول: ((يعني إيه يلغي قانون؟ الكلام ده في حد ذاته
مهزلة))

كما أن أحد المزسلين يقول: ((أنا أحمد سباعي.. رئيس جمعية
بينوكيو، أحب أقول.. الحمد لله إن صوتنا أخيرا وصل، وبشكر
السيد الرئيس بشدة، وبطلب من جميع الناس
إنها تصوت بـــ "نعم")) .

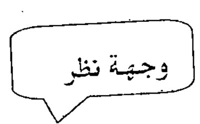
– دكتور شادي.. لم يعد هناك أي مرضى كما أنني قد أنهيتُ
عملي.. هل تريد مني شيئًا؟

– شكرًا.. يمكنك الانصراف.

– ألن تعود إلى المنزل؟

- سوف أضع اللمسات الأخيرة في الكتاب ثم سأغادر.
- حسنًا.. أراك غدًا على خير.. إلى اللقاء.
- إلى اللقاء.

***



إن الهدف من الكذبة هو ما يُحدِّد صلاحها من فسادها. فإن كان هذا الهدف نبيلًا كانت الكذبة عمل صالح. وإن كان غير ذلك فهو عمل فاسد لا يزيد المجتمع إلا انحلالًا وتمزيقًا.

النهاية ...

نشرة الأخبار

2100/5/1

((على الرغم من وصول نتيجة الاستفتاء إلى 85% لصالح إلغاء الباب الأول من الدستور فإنها لم تكن نسبة كافية لإلغائه. حيث إن الدستور ينصُّ على أن النسبة المطلوبة لإيقاف العمل بذلك الباب هي 95% على الأقل)).

2100/6/1

((قام السيد الرئيس بطلب عقد اجتماع طارئ لمجلس الأمن ليطالب بإجراء تعديلات على قوانين الباب الأول من الدستور الذي تتشاركه جميع الدول الأعضاء)).

2100/8/1

((بعد مناقشات دامت شهرين أصدر مجلس الأمن قرارًا بموافقته على مبدأ إضافة تعديل على قوانين الباب الأول. وذلك طبقًا لما يحفظ الأمن الداخلي للدول الأعضاء)).

2100/9/15

((بعد أكثر من أربعة أشهر على بدء هذا الأمر أصدر مجلس الأمن مجموعة من التعديلات التي سيدخلها على الباب الأول، وجاءت هذه التعديلات في صورة استثناءات يتم إضافتها إلى الاستثناء الوحيد الذي كان موجودًا في القانون القديم)).

وهذه الاستثناءات هي:

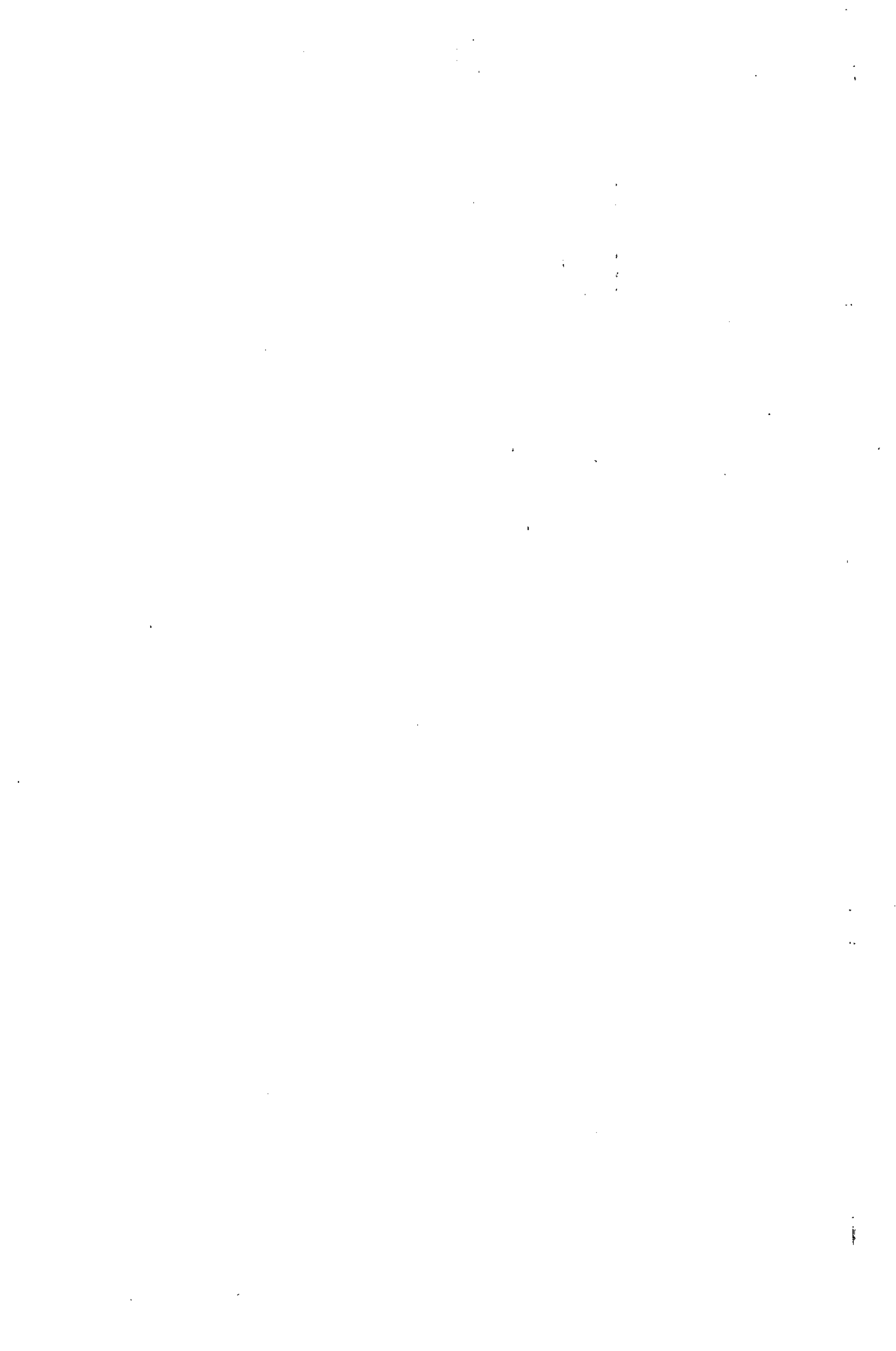
أولاً: في كل قضية.. يتم انتداب لجنة من مجموعة من أطباء علم النفس والاجتماع تكون وظيفتهم أخذ الجوانب الإنسانية والاجتماعية في الاعتبار.

ثانيًا: يحقُ للقاضي العالمي رد الدعوى القضائية إذا رأى عدم ارتباطها بالكذب، ويُشترط لذلك تقديم أسباب تبرهن ابتعاد القضية عن الكذب.

ثالثًا: يحقُ للقاضي العالمي الاعتذار عن أي قضية، ولكن يُشترط تقديم أسباب مقنعة لذلك.

2100/8/15

((قام مجلس الأمن بإصدار قائمة بأسماء مجموعة من فقهاء الدستور العالميين والذين سيقومون بإجراء التعديل على قوانين الباب الأول)).





الكذبة الأخيــرة

إن النية في فعل شيء ما قد تتحول إلى حاجز منيع أمام تحقيقه إذا لم تكن صادقة بمعنى الكلمة، لذلك إذا تيقنت من صحة ما تريد فعله فلا تضيع وقتك في التفكير الزائد بل تحرّك لتنفيذه وأنت مغمض العينين. لقد قررتُ اليوم أن أُنهي تلك المأساة التي أعيشها .. لقد قررتُ أن أريح ضميري اتجاه ما يؤذيني وهو ما أظنه يؤذي الكثيرين غيري، ولكنهم ليس لديهم القدرة لإيصال كلماتهم إلى هذا الحد، وقد كنت أستطيع أن أطلب المقابلة الشخصية ولكنني فضلتُ الرسالة المكتوبة لأنها أقل درجات الاحتكاك بتلك الحياة التي قررت أن أتخلى عنها.

Cover by #ahz_art







12 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور المرج العربية – القاهرة – مصر
01111947957
E-mail : daroktob1@yahoo.com